شكر

الجوارح وحفظها

عبدالله بن عبده نعمان العواضي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

شكر الجوارح وحفظها

تأليف

عبد الله بن عبده العواضي

المقدمة

الحمد لله الذي خلق وأنعم، وعلّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على نبينا المصطفى، ورسولنا المجتبى، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأبرار، ما تعاقب الليل والنهار. أما بعد:

فإن الله تعالى قد خلق الإنسان أحسن خلق وأكمله، وأتقنه وأفضله، وأودع فيه من النعم ما لا لا يحد، ومن بينات القدرة الربانية ما يفوق الحصر والعد، وقد أخرجه تبارك وتعالى إلى هذه الحياة لتكليفه بالأمر والنهي، فإن استجاب لذلك سعد في حياته الفانية، وحياته الباقية، وإن حاد عن هذا التكليف شقي في حياتيه الاثنتين.

كما خلق الله تعالى في الإنسان آلات التكليف المسماة بالجوارح التي بها يكون الاكتساب والعمل وبها جرى الابتلاء فمن حفظها في حدود الحلال فقد شكر الله عليها وأدى حقه فيها، ومن أرخى لها العنان حتى سامها في مراتع الحرام حيث شاءت فقد جحد نعمة الله عليها، وأعدها لتكون شاهدة عليه يوم القيامة بما اقترف بها من الخطايا، كما قال تعالى عن بعضها: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور:٢٤]، وقال: ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت:٢٠-٢٢]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: (هل تدرون مما أضحك)؟ قال: قلنا الله ورسوله أعلم، قال: (من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام قال: فيقول بُعداً لكن وسُحقًا فعنكن كنت أناضل)(١).

فالأمر إذاً عظيم، والخطب جسيم؛ لذلك كان على كل عاقل وعاقلة أن يلزما جوارحهما شكر الله، والحفظ لها عن مساخطه، فما شكر اللهَ من لم يحفظ جوارحه عن الحرام، وما أنجى نفسه من جعل أعضاءه تنحدر إلى وهدات الآثام.

---

(١) رواه مسلم.

وما أحسن كلمة أبي حازم الجامعة لشكر الجوارح، حيث قال رجل له: " ما شكر العينين؟ فقال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته، وإن رأيت بهما شراً سترته، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً دفنته، قال: ما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لك، ولا تمنع حقًا لله هو فيهما، قال: وما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعامًا، وأعلاه علمًا، قال: وما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المعارج:٢٩-٣١]، قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت ميتًا غبطته استعملت بهما عمله، وإن رأيت ميتًا مقته كففتهما عن عمله، وأنت شاكر لله عز وجل، فأما من يشكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر"(١).

فلما كان الأمر كذلك قمت بإعداد عشر خطب تتناول شكر الجوارح وحفظها، وألقيتها في المسجد الذي أخطب فيه؛ لعل الله أن ينفع المتكلم والسامع بما تضمنته هذه الخطب، فيكون ذلك سببًا لحفظ الأعضاء عما حرم الله ورسوله، وحثها على السعي إلى فعل ما أمر الله تعالى به ورسوله عليه الصلاة والسلام.

أسأل الله أن ينفعني وإخواني المسلمين بهذه الخطب العشر، وأن يتقبلها مني بقبول حسن، وصلى وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: عبد الله بن عبده العواضي

إمام وخطيب جامع ابن الأمير الصنعاني

١٤٤٠/٨/١هـ، ٢٠١٩/٣/٨م.

(١) حلية الأولياء (٣/ ٢٤٣).

شكر البصر(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإنسان، هل فكرتَ في حبيبتيك المطلّتينِ على أعلى وجهك، والمشرفتينِ أسفلَ جبينك، والمنيرتينِ لك دروبَ حياتك؟ هل فكرتَ في جمالهما، وجمالك بهما، وفي منافعهما الدينية والدنيوية؟

إن العين ضياء الحياة، ونافذة إلى رؤية ما في هذا الوجود من مخلوقات بديعة، ومصالحَ مرادة ليستفاد منها، ومضار مؤذية لكي يُبتعد عن طريقها. والبصر طريق من طرق سعادة الإنسان في الحياة، وتحفة كريمة رزقه الله إياها، يقول تعالى ممتنًا عليه: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾[البلد:٨]، وقال: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل:٧٨]، وقال: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾[الملك:٢٣].

كم من إنسان لا يعرف نعمة عينيه، ولا قدرَ منة البصر عليه، ألم يعلم بأن الشريعة جعلت في التعدي على إذهاب البصر الدية كاملة مائة من الإبل، وفي إذهاب العينين الدية كاملة أيضًا،

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ٢٤/٢/١٤٤٠هـ، ٢/١١/٢٠١٨م.

وفي إذهاب إحداهما نصف الدية، وحكم الشرع الحكيم بأن من فقأ عين إنسان فُقئت عينُه، قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[المائدة:٤٥].

ولعظم المنة بنعمة البصر. رتّب الله تعالى على ذهابه بالعمى جزاءً عظيمًا ألا وهو الجنة، إذا ما احتسب صاحبه المسلم المصيبة بذلك، وسمى الله العينين بالحبيبتين والكريمتين، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه- يريد عينيه- فصبر عوضته منهما الجنة)(١).

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم يعني عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: (إذا سلبت من عبدي كريمتيه وهو بهما ضنين لم أرض له ثوابًا دون الجنة إذا هو حمدني عليهما)(٢)(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله: إذا أخذت كريمتي عبدي فصبر واحتسب لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة)(٤).

فيا أيها المبصر الغافل عن نعمة البصر، انظر إلى من فقد نور عينيه كلتيهما فصار ضريرا، أو فقد إحداهما فأصبح بعين واحدة، أو من يعاني مرضًا بهما وألمًا اشتد عليه فيهما، انظر إلى هؤلاء،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن حبان، وهو حسن.

(٣) قال ابن بطال: " هذا الحديث أيضًا حجة في أن الصبر على البلاء ثوابه الجنة ، ونعمة البصر على العبد وإن كانت من أجل نعم الله تعالى فعوض الله عليها الجنة أفضل من نعمتها في الدنيا لنفاد مدة الالتذاذ بالبصر في الدنيا وبقاء مدة الالتذاذ به في الجنة. فمن ابتلي من المؤمنين بذهاب بصره في الدنيا فلم يفعل ذلك به لسخط منه عليه ، وإنما أراد تعالى الإحسان إليه إما بدفع مكروه عنه يكون سببه نظر عينيه لا صبر له على عقابه في الآخرة أو ليكفر عنه ذنوبًا سلفت لا يكفرها عنه إلا بأخذ أعظم جوارحه في الدنيا ليلقى ربه طاهراً من ذنوبه أو ليبلغ به من الأجر إلى درجة لم يكن يبلغها بعمله وكذلك جميع أنواع البلاء ، فقد أخبر عليه السلام أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه . وجاء عنه عليه السلام : (إن أهل العافية في الدنيا يودون لو أن لحومهم قرضت بالمقاريض في الدنيا؛ لما يرون من ثواب الله لأهل البلاء) فمن ابتلي بذهاب بصره أو بفقد جارحه من جوارحه فليتلق ذلك بالصبر والشكر والاحتساب وليرض باختبار الله له ذلك ليحصل على أفضل العوضين وأعظم النعمتين وهي الجنة التي من صار إليها فقد ربحت تجارته وكرمت صفقته، ولم يضره ما لقي من شدة البلاء فيما قاده إليها". شرح صحيح البخاري .لابن بطال (٩/ ٣٧٧).

(٤) رواه أبو يعلى، وهو صحيح.

واحمد الله على نعمة عينيك وإشراق بصرك الذي سلم من كل ما سبق.

أيها الأحباب الكرام، إن البصر نعمة كغيره من النعم خلقه الله تعالى للإنسان ليستعمله فيما أمره به وفيما أباحه له، ويبتعد به عن رؤية ما حرم الله النظر إليه، وسيُسأل العبد عن ذلك يوم القيامة: هل شكر الله تعالى بتسخيره فيما لا يغضب الله أو لا؟

قال تعالى: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[الإسراء:٣٦].

عباد الله، هناك أشياء كثيرة يدعو الله إلى النظر إليها، وأشياء أخرى يحذر من النظر إليها، وهناك أيضًا نظرات يُدعى المسلم إليها، ونظرات أخرى يُنهى عنها، فمِن شكرِ الله على نعمة العينين: صرفُ النظر وحالِ النظرات إلى ما يحب، وكف البصر وحركة العين عما يبغض.

فما أحسنَ أن نعرف ذلك حتى نسعى إلى ما يحب الله فنغنم الأجر، وما أجمل أن نعلم ما يكره الله النظر إليه، وندري النظرات التي لا يحبها؛ حتى لا نقع في الإثم والسخط.

إن مما ينبغي للمسلم النظر إليه: المصحفَ للقراءة فيه، فالنظر فيه عبادة من العبادات، فكم من خير للمسلم المبصر من هذه العبادة! فإنه يقرأ في كتاب الله تعالى ويتأمل في آياته فيجد من الكلام ما يبهج نفسه، ويريح قلبه، ويزيد رصيد حسناته، ويشغل وقته بما هو نافع، فلا تستولي عليه الوساوس والخواطر غير الصالحة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: "ألم" حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)(١).

ومما ينبغي للمسلم النظر إليه: كتب العلم النافع، فيقرأ المرء فيها ليعرف دينه، فيكون على نور وبصيرة في تعامله مع الله ومع نفسه ومع الخلق، فينتفع بذلك وينفع غيره. وكذلك من القراءة المحبوبة: القراءة في كتب العلم الدنيوي التي بها منفعة في هذه الحياة.

ومما ينبغي للمسلم النظر إليه: الحقائق والبراهين الدالة على الحق، فمن كان باحثًا عن الحق صادقًا في طلبه رأى بعينيه ما يهديه إلى الصراط المستقيم، وأما من كان لا يريد الحق فإنه ولو شاهد الحقائق فإنه لن يقبلها؛ لأن على بصره غشاوة الجحود والكراهية، قال تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[البقرة:٧]، وقال: ﴿

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾[البقرة:١٨].

ومما ينبغي للمسلم النظر إليه: كتاب الكون المفتوح، فيقرأ المتأمل في هذا الوجود الآيات المنشورة الدالة على عظمة الخالق سبحانه وقدرته، وعلمه وحكمته ورحمته، فكم فيه من آيات منظورة تهدي الناظر إليها إلى معرفة الخالق العظيم، وسلوك صراطه المستقيم، وتحثه على توحيد ربه الواحد والإيمان به.

قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾[الملك:٣] ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[الملك:٤]^

وقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[آل عمران:١٩٠] ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[آل عمران:١٩١].

وقال: ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس:١٠١]. وقال: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[العنكبوت:٢٠].

وقال: ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[الغاشية:١٧] ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾[الغاشية:١٨] ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾[الغاشية:١٩] ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية:٢٠].

سئل أعرابي عن الدليل على الله فقال: البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير؟!(١).

ومما ينبغي للمسلم النظر إليه: مصارع العصاة، وآثار الطغاة الذين كذبوا الرسل، وحادوا عن طريق الحق، فأنزل الله عليهم عقابه، فمن نظر إلى ذلك متفكراً أخذ من تلك الرسوم العافية، والأطلال البالية، والمشاهد الصامتة العبرةَ والعظة، حينما يعلم أسباب عقوبة أهلها وعاقبتهم الوخيمة، قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ

(١) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٢/ ٩١).

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٠]. وقال: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[آل عمران:١٣٧]، وقال: ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾[الحج:٤٥] ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج:٤٦].

ومما ينبغي للمسلم النظر إليه: تخوم الإسلام وتغور المسلمين، من أجل حراستها، وحماية المسلمين أن يؤتَوا من قبلها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)(١).

وهنا أمران:

الأول: أن حراسة ثغور المسلمين يمكن أن تشمل الثغور الحسية، وهي الأصل، والثغور المعنوية، وذلك بالنظر في الشبهات حول الإسلام ودفعها، ورد عادية الغزوات الفكرية المتجهة نحو دين الله، خاصة في هذه الأيام.

الثاني: ذكر الحديث عبادة من عبادات العين إلى جانب عبادة النظر ألا وهي: عبادة البكاء من خشية الله تعالى، وهذه العبادة هي دأب الصالحين، وأثر وصول الحق إلى شغاف قلوبهم، يقول تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾[الإسراء:١٠٧] ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾[الإسراء:١٠٨] ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[الإسراء:١٠٩].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه)(٢).

أيها المسلمون: للعين لغة تدل عليها حركاتها التي تعبر بها عن بعض الأحوال كالعطف والحنان، والرحمة والتوجع، والحب والخير، والسخرية والاستهزاء، والإشارة إلى فعل منكر، وغير ذلك.

فمن النظرات التي يدعى المسلم إليها: نظرة العطف والحنان والحب للوالدين، فإنها من البر،

---

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

ومما يدخل السرور على الأبوين، ويباين هذه النظرة ويضادها نحو الوالدين: نظرة الحقد والغضب، أو الاشمئزاز والبغض، أو السخرية والاحتقار، وهذه النظرات من العقوق؛ لأنها تدخل على الوالدين الحسرة والألم.

ومنها أيضًا: نظرة العطف والرحمة باليتامى، وهي نظرة تدعو إلى الإحسان إليهم، وتعويضهم حنان الأبوة الذي فقدوه.

ومنها كذلك: نظرة التوجع والرحمة بالمساكين والأرامل والمحتاجين والمظلومين، وصاحب هذه النظرة ذو قلب حي ومشاعر كريمة.

عباد الله، إن هناك أشياء نهيَ المسلم عن النظر إليها؛ لأمور تستوجب ذلك:

فمما حرمه الله من ذلك: نظر الرجال إلى النساء، والنساء إلى الرجال، من غير الأزواج والمحارم، فالله عز وجل قد أمر الرجال والنساء بغض البصر. فقال: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[النور:٣٠] ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ.. ﴾ [النور:٣١].

"قال سعيد ابن أبي الحسن للحسن: إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن ؟ قال: اصرف بصرك عنهن؛ يقول الله عز و جل: ﴿﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾"(١).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : " وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولما كان مبدأ ذلك من قِبل البصر. جعل الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج؛ فإن الحوادث مبدأها من النظر كما أن معظم النار مبدأها من مستصغر الشرر، ثم تكون نظرة ثم تكون خطرة ثم خطوة ثم خطيئة؛ ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات" (٢).

إن الإنسان يُعفى عنه من نظر الفجأة، ولكنه لا يعفى عن قصد النظر وتكراره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: (يا علي، لا تتبع النظرة النظرة؛ فإنما لك الأولى، وليست لك

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٩٩).

(٢) الجواب الكافي (ص: ١٠٥).

الآخرة)(١).

وعن جرير رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فقال: (اصرف بصرك)(٢).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان الفضل رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءت امرأة من خثعم فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر(٣).

إن غض البصر ابتغاء وجه الله دليل على أن صاحبه قد بلغ مرتبة عالية في الإيمان فصار لا يرى إلا ما يحب الله، وبذلك يصبح وليًا من أولياء الله ومن أهل محبته، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه) (٤).

قال القرطبي رحمه الله: " البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته. ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله"(٥).

إن بعض الناس قد تمر به امرأة أو يمر بامرأة في الطريق فيسرِّح طرفه فيها، وينظر إلى محاسنها، وهو بهذا الفعل قد خان في عينه، ولم يتأدب بآداب الطريق التي أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[غافر:١٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:(إياكم والجلوس في الطرقات). فقالوا: ما لنا بدٌّ(٦)، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: (فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها). قالوا: وما حق الطريق؟ قال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود، وهو حسن.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

(٥) تفسير القرطبي (١٢/ ٢٢٣).

(٦) بد: غنى عنه.

)(١).

أيها الأحباب الفضلاء، إن إطلاق النظر إلى الحرمات خطرُه على صاحبه كبير، فالنظرة سهم من سهام إبليس إن لم تقتل صاحبها جرحته، وقد يستصغر بعض الناس هذا الذنب ولا يدري ما عواقبه وآثاره!

قال بعض أهل العلم: " والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان؛ فإن النظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابد، ما لم يمنع منه مانع، وفى هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده؛ ولهذا قال الشاعر:

كلُّ الحوادث مبداها من النظرِ ... ومعظمُ النار من مستصغر الشررِ

كم نظرة بلغت في قلب صاحبها ... كمبلغ السهم بين القوس والوتر

والعبد ما دام ذا طرف يقلبه ... في أعين العِين موقوفٌ علي الخطر

يسر مقلتَه ما ضرَّ مهجته ... لا مرحبا بسرور عاد بالضررِ"(٢).

وقال آخر: "أكثر فساد القلب من تخليط العين، ومادام باب العين موثقًا بالغض فالقلب سليم من كل آفة، فإذَا فُتِحَ طَارَ الطَّائرُ، وَرُبَّمَا لَمْ يَعُد بَعدُ "(٣).

إن الناظر نظرة الحرام لا يعود بفائدة، بل يعود بضرر كبير على نفسه يفسد قلبه وخاطره وجسده، وربما قاده إلى الفاحشة، قال الشاعر:

وكنتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رائِداً ... لقَلْبِكَ يوماً أَتْعَبَتْكَ المَناظِرُ

رَأَيْتَ الذي لا كُلُّهُ أنتَ قادِرٌ ... عليهِ، ولا عن بَعْضِهِ أنتَ صابِرُ(٤).

وقال الآخر:

نظرُ العيونِ إلى العيون هو الذي ... جعل الهلاك إلى الفؤاد سبيلا

ما زالتِ اللحظاتُ تغزو قلبه ... حتى تشحّط بينهن قتيلاً(١).

---

(١) متفق عليه.

(٢) الجواب الكافي (ص: ١٠٦).

(٣) المدهش (ص: ٣٦٣).

(٤) الحماسة البصرية (ص: ١٥٦).

إن العين كنز ثمين وُهِبه الناظرُ فكان يحتاج إلى حفظ وصيانة، وأعظم طريق لحفظه: غضه عن الحرام، "

"وقد ثبت علمياً بالأبحاث والدراسات الطبية أن تكرار النظر بشهوة إلى الجنس الآخر وما يصاحبه من تولد رغبات جامحة لإشباع الغرائز المكبوتة، كل ذلك يفضي بالشخص إلى مشاكل عديدة قد تصل إلى إصابة جهازه التناسلي بأمراض وخيمة؛ مثل احتقان البروستاتا، أو الضعف الجنسي، وأحياناً العقم الكلي، كما أثبتت بعض الدراسات الاجتماعية في المجتمعات الغربية أن عدم غض البصر يورث الاكتئاب والأمراض النفسية، وأن التفسخ الأخلاقي والتحلل الجنسي في تلك المجتمعات إنما هي بعض من نتائج عدم وجود دستور ديني أو قيود أدبية أخلاقية ينظم عمل هذه الحاسة النبيلة، ويرشد استخدامها في الحياة بما يتوافق مع صحة الإنسان البدنية والنفسية"(٢).

أيها الأحبة الفضلاء، إن مَن غض بصره عن حرمات الناس أورثه ذلك خيراً كثيراً في الدنيا والآخرة؛ فبغض البصر يُحفظ البدن والروح، وتُصان النفس عن قالة السوء، ويسلم دين صاحبه من الآثام، ويسلم قلبه من سبب من أعظم أسباب فساده. هذا في الدنيا.

وأما في الآخرة: فغض البصر سبب من اسباب النجاة من النار والفوزِ بالجنة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عين حرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله، وعين كفت عن محارم الله)(٣).

وقال صلى الله عليه وسلم : (اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا الأمانة إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم) (٤).

أحبتي الفضلاء، إن تحريم النظر إلى النساء الأجنبيات يشمل النظر إلى الذوات والنظر إلى الصور الثابتة أو المتحركة، المعروضة على شاشات التلفاز أو الحاسوب أو الجوال أو في الصحف والمجلات، أو الصور الإعلانية في المحلات والشوارع، أو الملصقة على بعض المصنوعات، بل قد يكون النظر إلى الصور أشد فتنة من النظر إلى الذوات؛ لما في الصور من

---

(١) ديوان الصبابة (ص: ٢٦).

(٢) أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء (ص: ٢٥١).

(٣) رواه الطبراني، وهو حسن.

(٤) رواه أحمد، وابن حبان، وهو حسن.

عوامل التحسين والتزيين، وكم تساهل بعض الناس في النظر إلى الصور أكثر من تساهلهم إلى النظر إلى الذوات الحقيقية، وأضرتهم أيما ضرر!

عباد الله، من سمات هذه الشريعة: التيسير، ومراعاة المصالح وأحوال النفوس، فإذا كان الأصل تحريم نظر الرجل إلى المرأة غير الزوجة أو المحرمة عليه إلا أنه يستثنى من هذا الأصل بعض الصور التي يجوز للرجل أن ينظر إلى غير زوجته وحرماته، فمن ذلك:

جواز النظر من أجل العلاج، فيجوز للطبيب أن ينظر من المريضة إلى الموضع الذي يحتاج إلى تطبيب، ولكن بشروط، فمن ذلك: أن لا يجاوز حدود الموضع المحتاج إلى علاج إلى غيره، وأن يكون بحضور محرم أو زوج، وأن لا يكون هناك طبيبة يمكنها أن تعالج ذلك المرض.

ومن الصور أيضًا: جواز نظر الخاطب إلى المخطوبة، والمخطوبة إلى خاطبها؛ لأن ذلك أدعى للقناعة والاتفاق. فعن المغيرة بن شعبة: أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه و سلم: (انظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)(١).

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل)(٢).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٢) رواه أبو داود والبزار، وهو صحيح.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

أيها المسلمون، ومما حرم الله النظر إليه: العورات، فلا يجوز أن ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة، ولا يجوز أن تنظر المرأة إلى عورة المرأة ولا الرجل، سواء كان ذلك رؤية حقيقية أو رؤية للصورة. قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة)(١).

ومما حرم الله النظر إليه: خبايا الناس وخفاياهم، وذلك بتتبع عثراتهم والبحث عن عوراتهم، من أجل الإضرار بهم وهم أبرياء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته)(٢).

أيها الفضلاء، هناك نظرات على المسلم أن يبتعد عنها، فمنها:

نظرة الحسد، فلا يحل للمسلم أن ينظر هذه النظرة إلى ما فضل الله غيره عليه ببعض النعم، بل عليه أن يصرف بصره، ويسأل الله من فضله. ويدخل في هذا نظرة العائن إلى الأجسام والأموال، وهذه النظرة الضارة تعدٍّ وإيذاء، فمن كان عائنًا أو يخشى أن يصيب غيره بعينه فليدعُ بالبركة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يعجبه فليدعُ له بالبركة؛ فإن العين حق)(٣).

ومن ذلك أيضًا: نظرة الاحتقار والاستهزاء، والتهوين من الشأن.

ومن ذلك: الإشارة بالعين إلى إيذاء مسلم بأي نوع من أنواع الأذى.

ومن ذلك أيضًا: نظرة الإعجاب بالدنيا، والافتتان بها، خصوصًا ما عند الكفار من متاعها؛ لأن هذه النظرة تؤدي إلى ازدراء نعم الله تعالى، وتسوق إلى اللهو بالحياة الفانية ونسيان الحياة الباقية، قال تعالى: ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾[طه:١٣١].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وهو صحيح.

(٣) رواه الحاكم والطبراني، وهو صحيح.

ومن ذلك كذلك: النظر إلى المنكرات وهي تُعمل، وإلى حرماتِ الله وهي تنتهك، وإلى نفوسٍ بريئة تُظلم، فينظر الناظر إليها غير مبالٍ ولا مهتم، وعنده قدرة على تغيير المنكر ونصرة المظلوم، ولم يفعل!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)(١).

عباد الله، لا يجوز للمسلم أن يحرف الحقائق فيكذب فيها زيادة أو نقصًا أو تبديلاً، ولا يجوز له أن يقول: إنه رأى كذا ولم ير، أو يقول: إنه لم ير وقد رأى، سواء كان ذلك في يقظته أو منامه، قال النبي صلى الله عليه و سلم: (من تحلَّم بحُلم لم يره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل) (٢).

أيها المسلمون، فبعد هذا علينا أن نشكر الله تعالى على نعمة العينين، ونعمة البصر بهما، ومن شكر الله: استعمال ذلك فيما يحب الله تعالى، والبعد عما يسخطه تعالى.

وأما من بُلي من المسلمين بالعمى فلا يحزن، بل عليه أن يصبر ويرضى بقدر الله؛ فإن الصبر على ذلك من أسباب دخول الجنة. وعليه أن يوقن بأن الخير فيما اختاره الله، ولعل في ذهاب بصره صيانة له عن إطلاق بصره في الحرمات، وقد يعوضه الله نوراً في بصيرته يغنيه عن نور البصر، كما قال ابن عباس:

إنِ يأخذ اللهُ من عينيَّ نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نورُ

قلبي ذكيٌّ وعقلي غير ذي دخل... وفي فمي صارم كالسيف مأثورُ(٣).

هذا وصلوا وسلموا على خير البشرية....

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥٧).

شكر السَّمع(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، تتعدد نِعم الله على العباد، وتكثر مِنَنه عليهم، ولا عادّ لما أعطى، ولا محصيَ لما أولى، ألا وإن من تلك النعم الجليلة والمنن الجزيلة: نعمة السمع التي بها إدراك المسموعات، وتمييز الأصوات، فيا لها من منّة عظيمة، ونعمة جسيمة!

فمع مجيء الإنسان إلى الدنيا رافقته حاسةُ السمع إلى هذه الحياة؛ لكونها طريقًا إلى معرفة الخالق ومعرفة خلقه، ومفتاحًا له إلى إدراك علومه وأحواله، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل:٧٨]. وقال: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾[السجدة:٩].

كم في هذه النعمة على الإنسان من تحصيل منافع له ودفع مضار عنه؛ فبها تصل إليه أصوات الهداية التي تصلح قلبه وروحه، وبها يصل إلى مصالح عيشه وتنظيم أحوال حياته، وبها يريح نفسه ويشرح صدره بالأصوات الجميلة؛ كخرير الماء، ودوي المطر، وهدير الأمواج، وهبوب

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ١٥/٣/١٤٤٠هـ، ٢٣/١١/٢٠١٨م.

الرياح، وحفيف الأشجار، ورفيف الأغصان، وتغريد البلابل، وزقزقة العصافير.

وبها نستطيع أن نعيش مع الآخرين فنفهمهم ويفهموننا من خلال الكلام ونستفيد منهم ويستفيدون منا، وبها يتلقى الأطفال اللغة ليتكلموا بها، فلولاها لما عرفوا الكلام.

وبهذه النعمة يميز الإنسان بأن هذا صوت قرآن وهذا صوت ألحان، وهذا صوت إنسان وهذا صوت حيوان، وهذا صوت والد، أو صوت ولد، وهذا صوت عليه أن يقبل عليه، وهذا صوت عليه أن يحذر منه.

عباد الله، من أراد معرفة عظمة هذه النعمة من حيث الخَلق، ومن حيث الأثر، فليعلم أن الله القائل: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين:٤] قد أحسن خِلقة الجهاز السمعي فركبه أحسن تركيب من داخله ومن خارجه، فكم فيه من آيات تدل على قدرة الله وإحكام خلقه، ورحمته بعبده، وكيف جعل له أذنين جميلتين وسيلة لجمع الأصوات، وكيف ركَّب كلاً من الأذن الخارجية والأذن الوسطى والأذن الداخلية من أجزاء دقيقة تعمل لصالح السمع.

وكيف جعلت الشريعة الإسلامية الاعتداء على الأذن فيه القصاص، وفي الديات جعلت في كل أذن نصف الدية، وفي إذهاب حاسة السمع كله الديةَ كاملة.

وأما من حيث الأثر فانظر أيها الإنسان السليم في سمعك إلى ذوي العيوب في السمع، انظر إلى ضعيف السمع كم يلاقي من العناء حتى يفهم مراد الأصوات، وانظر إلى فاقد السمع كم يتعرض لبعض الأضرار وفوات بعض المصالح ويجد من المشقات بسبب صممه، واسأل بالكتابة-إن وجدت- من كان سميعًا ثم أصيب في سمعه: كم الفرق في حاله قبل صممه وبعده؟ لتدرك عظمة نعمة الله تعالى عليك.

ألا فاشكرِ الله على نعمته الجزيلة عليك بسلامة سمعك، ولكن تذكر أن هذه النعمة ستسأل عنها يوم القيامة: هل استعملتَها في سمع ما يرضي الله أو استعملتها في سمع ما يسخطه؟ قال تعالى: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[الإسراء:٣٦].

أيها المسلمون، إن السمع بوابة لكسب الحسنات، أو لاكتساب السيئات، وقناة للخير أو للشر، والحريص على دينه وصلاح عيشه ينتقي ما يسمع فلا يصغي أذنيه لكل صوت، بل يفتحها لاستماع ما يجلب له الخير العاجل والآجل.

فمما ينبغي الاستماع إليه: صوت الحق الذي يهدي مستمعه إلى الصراط المستقيم، ويرشده إلى

الحق، ويبين له الصواب. فأشرف المسموعات: القرآن الكريم، فالقرآن كتاب هداية وإرشاد، ودلالة إلى سبل الخير، وتحذير من سبل الشر، وحروفه وجملُه ذات وقع معجز، وتأثير عجيب، فمن أصغى إليه سمعَه، وأحضر عند ذلك قلبَه انتفع بسماعه هدايةً واسترشاداً، وتلذذاً وعملاً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧]، قال بعض أهل العلم: " إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧]، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد..."(١).

وقال تعالى مبينًا أن القرآن حجج وبراهين وهدى، آمراً بالاستماع له والإنصات لحروفه المشرقة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٣] ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٤].

وكم لاستماع القرآن من أثر على النفوس والقلوب، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ عليّ). قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك وعليك أنزل ؟! قال: (نعم). فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾[النساء:٤١]. قال: (حسبك الآن). فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان(٢).

عن الفضل بن موسى قال: "كان الفضيل بن عياض شاطراً(٣) يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته: أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾[الحديد:١٦].قال: فلما سمعها قال: بلى – يا رب– قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خربة وإذا فيها سابلة فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح؛ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى

(١) الفوائد (ص: ٣)، ثم شرح ابن القيم ذلك شرحًا نافعًا.

(٢) متفق عليه.

(٣) يعني: قاطعًا للطريق.

بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ههنا يخافونني! وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللّهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام"(١).

أما من سمع القرآن ولم ينصت له ولم يفتح إلى قلبه قناة انتفاع به فلن يؤثر عليه كحال المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾[البقرة:١٨]، وقال: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾[الأنبياء:٢]. ولكن زعماء المشركين لما علموا عظم تأثير القرآن على مستمعيه تواصوا بعد سماعه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت:٢٦].

أيها الأحباب الكرام، ومن أصوات الحق التي ينبغي أن يصغى لها: صوت الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن لما أن مات عليه الصلاة والسلام فإن علينا أن نسمع سنته ونعيها ونتبعها ونبلغها، فرب مبلَّغ أوعى من سامع، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نضر الله امرأً سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه، فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع)(٢).

فعلى المسلم أن يحرص على سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعمل به ويستجيب لما يدعو إليه، وليحذر أن يسمعه ويعرض عن العمل بما فيه متجهًا إلى العمل بخلاف ما يدعو إليه فيكون حاله كحال المشركين الذين قال الله عنهم: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:١٧١].

ومما ينبغي الاستماع له والإصغاء إليه: صوت العلم النافع الذي ينير للإنسان طريق الهدى، ويعرفه صواب الأفكار والأعمال والأقوال. ومن العلم النافع: الاعتبار بأحوال الأمم، وهي عظات ترغِّب في الخير وتحذر من الشر، فالله تعالى ذكر في سورة ق عواقب بعض الأمم المكذبة ثم قال عقب ذلك: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧].

ومما ينبغي الاستماع له والاستجابة لندائه: صوت الأذان للصلاة، خاصة نداء الجمعة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الجمعة:٩]. فالأذان دعوة إلى الفلاح، ونداء إلى ما فيه صلاح المرء في دنياه، ونجاته في أخراه، وقد شرع للمسلم استحبابًا متابعةُ المؤذن والقول مثل

---

(١) شعب الإيمان، البيهقي (٥/ ٤٦٨).

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن حبان، وهو صحيح.

ما يقول إلا في الحيعلتين، والدعاء بعد ذلك بالذكر الوارد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ؛ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من قال حين يسمع النداء: اللّهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة)(٢).

وأما الاستجابة لما يدعو إليه المؤذن والذهاب إلى المساجد فمما على السامعين فعله، وقد ورد في بعض الأخبار ما يدل على آثار ترك الاستجابة لذلك. "قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وقد كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم : ٤٣] قَالَ: نَزَلَتْ فِي صلاة الرَّجُل يسمع الأذان فلا يجيب. وقال أيضًا: من سَمِعَ النداء فَلَمْ يجب فلا صلاة لَهُ إلا من عذرٍ. وعَن عَلِيّ رضي الله عنه قَال: لا صلاة لجار المسجد إلا فِي المسجد. قيل : يَا أمير المُؤْمِنِين، ومن جار المسجد ؟ قَالَ: من سَمِعَ الأذان. وعَن أَبِي موسى رضي الله عنه قال: من سَمِعَ النداء فارغاً صحيحاً فَلَمْ يُجب فلا صلاة لَهُ"(٣).

ومما ينبغي الإنصات له واستماعه: خطبة الجمعة، وهو إنصات واجب على من شهد الجمعة، وفيه فضل وأجر لفاعله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغُ؛ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها)(٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: (لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام؛ إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى)(٥).

ولعظم الأمر بالاستماع التام لخطبة الجمعة جعل الكلام والانشغال أثناءها بغيرها من

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) تنظر هذه الآثار في فتح الباري. لابن رجب (٤/ ٩).

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وهو صحيح.

(٥) رواه البخاري.

المستمعين فيما بينهم ملغيًا لأجر الجمعة، قال صلى الله عليه وسلم: (إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: أنصت والإمام يخطب فقد لغوت)(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، ومن مس الحصا فقد لغا)(٢).

أيها الإخوة الفضلاء، ومما ينبغي الاستماع إليه: نداء الوالدين، فإذا تكلم الوالدان فإن من البر: الإنصات لكلامهما، والاستجابة لهما في المعروف، حتى ولو كان الإنسان في عبادة غير واجبة كصلاة النافلة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: كان جريج يتعبد في صومعة فجاءت أمه ثم رفعت رأسها إليه تدعوه فقالت: يا جريج، أنا أمك كلمني، فصادفته يصلي فقال: اللّهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته، فرجعت ثم عادت في الثانية فقالت: يا جريج، أنا أمك فكلمني، قال: اللّهم أمي وصلاتي فاختار صلاته فقالت: اللّهم إن هذا جريج وهو ابني وإني كلّمتُه فأبى أن يكلمني، اللّهم فلا تمته حتى تريه المومسات، قال: ولو دعت عليه أن يفتن لفتن. قال: وكان راعي ضأن يأوي إلى ديره قال: فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها الراعي فحملت فولدت غلامًا فقيل لها: ما هذا ؟ قالت: من صاحب هذا الدير، قال: فجاءوا بفؤوسهم ومساحيهم فنادوه فصادفوه يصلي فلم يكلمهم، قال: فأخذوا يهدمون ديره، فلما رأى ذلك نزل إليهم فقالوا له: سل هذه، قال: فتبسم، ثم مسح رأس الصبي فقال: من أبوك ؟ قال: أبي راعي الضأن، فلما سمعوا ذلك منه قالوا: نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة، قال: لا، ولكن أعيدوه ترابًا كما كان ثم علاه)(٣).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

عباد الله، وكما أن السمع بوابة للحسنات هو أيضًا بوابة للسيئات، فهناك مسموعات لا يجوز سماعها؛ لأن الشرع الشريف نهى عن ذلك، أو لأن تلك المسموعات تفضي إلى شر كبير على سامعها.

ولهذا بين رسول الله عليه الصلاة والسلام أن الأذنين تقعان في الخطيئة بسماعها الباطل، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة؛ العينان زناهما النظر... والأذن زناها الاستماع)(١).

وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هناك كفارات لخطايا الأذنين، ومن تلك الأعمال الصالحة المكفِّرة: الوضوء، قال عليه الصلاة والسلام: (إذا توضأ المسلم فغسل يديه كفر عنه ما عملت يداه، فإذا غسل وجهه كفر عنه ما نظرت إليه عيناه، وإذا مسح برأسه كفر به ما سمعت أذناه، فإذا غسل رجليه كفر عنه ما مشت إليه قدماه، ثم يقوم إلى الصلاة فهي فضيلة)(٢).

فمن تلك المسموعات المحظورة: الخوض في دين الله تعالى بالطعن والانتقاص والاستهزاء، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالله أم بكتابه أم برسوله أم بشريعة الإسلام؛ فإن هذه مقدسات لا يجوز التعدي عليها بسوء القول، ولكن أعداءها لا يألون جهداً في بث الأقوال المشينة نحوها، ولسهولة إرسال تلك الأقوال والحروف الشقية في هذا العصر إلى كل الناس عبر وسائل التواصل وآلات الإعلام المختلفة؛ كان على المسلم الحذر من استماع تلك الطعون الجائرة. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[الأنعام:٦٨].

ومن المسموعات المحظورة: الشبهات التي تثار من قبل أعداء الحق حول العقيدة والشريعة، وما أكثرها في هذه الأيام وأسرع انتشارها! وقد جند أولياء الشيطان جنوداً يبثون سموم أفكارهم حول الإسلام، ويطعنون في ثوابته وعناصر القوة والتميز فيه، وينشرون ذلك على

---

(١) رواه أبو داود، وهو حسن.

(٢) رواه الطبراني، وهو حسن.

نطاق واسع عبر الفضائيات وخدمات الشبكة العنكبوتية ووسائل الاتصال، فتلقفها فئام من الناس، فمن كان لديه حصانة دينية ومعرفة صحيحة رد تلك الشبهات الباطلة، لكن المشكلة في أولئك الذين ليس عندهم دراية صحيحة بدينهم، فلذلك تأثر بتلك الأفكار المسمومة عدد غير قليل من النساء والرجال خاصة في صفوف الشباب؛ إما اقتناعًا بتلك الأطروحات وإما شكًا وحيرة أوقعوا أنفسهم فيها، فصاروا في صراع نفسي كبير.

فعلى المسلم الحريص على دينه البعد عن سماع تلك الشبهات ومشاهدةِ مقاطعها المرئية؛ خشية التأثر بها، أما من كان على علم راسخ وديانة متينة فسمعها للرد عليها فلا بأس بذلك.

ومن المسموعات المحظورة: صوت الغِناء وآلات اللهو، فالغناء هو صوت الشيطان، وطريق إلى غضب الرحمن، وهو مهيِّج للشهوات، وداعٍ إلى المعاصي والسيئات، وهو مفسد للقلب والخاطر، ومُلهٍ للعبد عن القيام بالأوامر. يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[لقمان:٦]. قال ابن مسعود وابن عباس وجابر رضي الله عنهم، وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول والحسن البصري رحمهم الله: إن لهو الحديث هو الغناء(١). وهؤلاء الصحابة والتابعون هم أعلم الناس بتفسير كتاب الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾[الإسراء:٦٤]. قال مجاهد: باللهو والغناء، أي: استخفهم بذلك(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صوتان ملعونان؛ صوت مزمار عند نعمة، وصوت ويل عند مصيبة)(٣). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذاك؟ قال: إذا ظهرت القينات، والمعازف وشربت الخمور)(٤). والقينات: المغنِّيات.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده: "خذهم بالجفاء فهو أمنع لإقدامهم، وقلةِ الضحك فإن كثرته تميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن؛ فإنه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف واستماع

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣).

(٣) رواه البزار ورواته ثقات، وهو حسن.

(٤) رواه الترمذي، وهو صحيح.

الأغاني واللهج بهما ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشبُ بالماء "(١).

أيها المسلمون، ومن الأشياء التي ينبغي عدم الإصغاء إليها واستماعها: الغيبة والنميمة والطعن في أعراض الناس والاستهزاء بهم والسخرية منهم، والكلام البذيء الفاحش والكذب والقذف والشائعات والأراجيف وغير ذلك من سيء الأقوال، وكل واحد من هذه المساوئ القولية يحتاج إلى إطناب في الحديث عن خطر قوله والتحذير من استماعه، ولكن لا يسع المقام لذلك.

قال بعض الشعراء:

توخَّ من الطرْق أوساطَها . . . وعدّ عن الجانب المشتبهْ

وسمعَك صُن عن سماع القبيـ . . . ـحِ كصونِ اللسان عن النطق بهْ

فإنك عند سماع القبيـ . . . ـحِ شريكٌ لقائله فانتبهْ(٢).

وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ما أَهْوَيْتُ كَفِّي لرِيبَةٍ ... ولا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فاحِشَةٍ رِجْلي

ولا قادَنِي سَمْعِي ولا بَصَرِي لَها ... ولا دَلَّنِي رَأْيٌ عَلَيْها ولا عَقْلِي

وأَعْلَمُ أَنِّي لم تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ ... مِن الدَّهْرِ إلاّ قد أَصابَتْ فَتىً قَبْلِي(٣).

ومن الأشياء التي ينبغي صيانة السمع عنها: أصوات النساء الفاتنة، وطلب التلذذ بسماع كلامهن وحديثهن؛ فخطر ذلك على القلب معلوم، وأثره في خدش جدار العفة غير مجهول.

ومما ينبغي ترك ميل السمع إليه: عورات المسلمين وعيوبهم خصوصًا الجيران، وكذلك الاستماع لحديث من لا يريد استماع حديثه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنُك يوم القيامة)(٤). وفي رواية: (ومن استمع إلى حديث قوم ولا يعجبهم أن يستمع حديثهم أُذيب في أذنه الآنك)(٥).

---

(١) ذم الملاهي، لابن أبي الدنيا (ص: ٧٥).

(٢) الكشكول، للعاملي(١/ ١٧٤).

(٣) الحماسة البصرية (ص: ١٢٨).

(٤) رواه البخاري.

(٥) فتح الباري(١٢/ ٤٢٨). والآنك: الرصاص المذاب، وقيل هو الخالص الرصاص.

قال الشاعر:

أعمى إذا ما جارتي خرجتْ ... حتى يواري جارتي الخِدرُ

ويُصمُّ عما كان بينهما ... سمعي وما بي غيره وقْرُ(١).

أيها المسلم، وبعد هذا لتكن أنت أذنَ خيرٍ تصغي للحق فتستمع وتتبع، وتُغلق أمام الشر. فلا تميل ولا تستمع، وفي حادثة الإفك قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش: (يا زينب، ما علمتِ ما رأيتِ؟). فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً. قالت: وهي التي كانت تساميني فعصمها الله بالورع(٢). ومعنى قولها: (أحمي سمعي وبصري) أي: أصون سمعي وبصري من أن أقول سمعتُ ولم أسمع، وأبصرتُ ولم أبصر، أو المعنى: لا أنسب إليهما ما لم أسمع وأبصر(٣).

واعتنِ-أيها المرء- بسمعك منقاداً به للحق، معرضًا به عن الباطل، وادعُ بما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لسمعه؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام يذكر الله ويدعوه فيقول:

(خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي...)(٤).

ويقول: (اللّهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً..)(٥).

ويقول: (اللهُمَّ أَصلِح لِي سَمعِي وبَصرِي واجعَلهُما الوَارِثَيْنِ مِني، وانصُرنِي عَلى مَن ظَلَمَنِي، وأَرِني مِنه ثَأري)(٦).

ويقول: (ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا)(٧).

واعلم-أيها العبد- أن صلاح السمع علامة على محبة الله لصاحبه؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت

---

(١) التذكرة الحمدونية (١/ ١٩٠).

(٢) متفق عليه.

(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١١٣)، فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢٦٠).

(٤) رواه مسلم.

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه البخاري في الأدب المفرد، وهو صحيح.

(٧) رواه الترمذي، وهو حسن.

سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)(١).

وأما إذا لم إذا لم يصلح السمع فغدا منفتحًا للباطل موصداً أمام الحق فما أبعدَ صاحبَه عن الله وعن الخير، فلو مات على ذلك فإن الحسرة والندامة والألم ستحضره يوم لقاء ربه فيقول: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[الملك:١٠].

هذا وصلوا وسلموا على البشير النذير...

(١) رواه البخاري.

شُكرُ اللسان(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد خلق اللهُ تعالى الإنسانَ في أحسن تقويم، وأعلى شأنه على كثير من خلقه بالتفضيل والتكريم، وأودع فيه من آيات قدرته، وبراهين حكمته ما لا يحصى، ومازالت نعمه تعالى عليه تترى حتى يفارق الحياة الدنيا.

ألا وإن من هباته سبحانه السَّنية، ونعمه الجليّة للإنسان: نعمة النطق والقدرة على الكلام، قال تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾[الرحمن:١] ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾[الرحمن:٢] ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾[الرحمن:٣] ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[الرحمن:٤]. وقد جعل تعالى جارحة اللسان هي المعبِّرَ عما في نفس الإنسان، والناطق بما أراده، يقول عز وجل ممتنًا عليه: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾[البلد:٨] ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾[البلد:٩]. ويقول تعالى مبينًا فضل البيان باللسان وفصاحته: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾[طه:٢٧] ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾[طه:٢٨]، وقال: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾[القصص:٣٤]، وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه شيء من الحبسة قبل النبوة فلذلك قال فرعون: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[الزخرف:٥٢]، لكن موسى لما دعا الله قبل التوجه إلى فرعون استجاب الله له بإزالة حبسته كما قال تعالى: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾[طه:٢٧] ﴿

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ٧/٤/١٤٤٠هـ، ١٤/١٢/٢٠١٨م.

يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾[طه:٢٨] إلى قوله: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾[طه:٣٦](١).

عباد الله، لقد أودع الله اللسان" من المنافع منفعة الكلام وهي أعظمها...وجعل سبحانه اللسان عضواً لحميًا لا عظم فيه ولا عصب؛ لتسهل حركته؛ ولهذا لا تجد في الأعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه؛ فإن أي عضو من الأعضاء إذا حركته كما تحرك اللسان لم يطق ذلك، ولم يلبث أن يكَل ويخلد إلى السكون إلا اللسان، وأيضًا فإنه من أعدل الأعضاء وألطفها وهو في الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه، فمزاجه من أعدل أمزجة البدن، ويحتاج إلى قبض وبسط وحركة في أقاصي الفم وجوانبه، فلو كان فيه عظام لم يتهيأ منه ذلك ولما تهيأ منه الكلام التام ولا الذوق التام، فكّونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلي والغائي، والله أعلم"(٢).

إن أكثر الناس غافلون عن نعمة النطق باللسان، غير مدركين عظم فضل الله عليهم بها، فمن أراد الاستيقاظ من هذه الغفلة فلينظر إلى الأبكم وعِيّه، وصعوبة إبانته عما في نفسه، وكثرة حركاته، وتعدد إشاراته، وإصداره الأصوات المختلفة التي يريد من خلالها إيصال رسالته، ولينظر الغافل كذلك إلى الذين لديهم عيوب في النطق من فأفأة وتأتأة وثأثأة، وتلعثم ولجلجة وخرس وحبسة وغير ذلك؛ حتى يدرك فضل الله عليه بالقدرة على الكلام السليم فيشكره على نعمته عليه.

ألا وإن من شكر الله على نعمة اللسان: استعمال نطقه وصمته فيما يرضي الله تعالى، فاللسان عضو صغير لكن خطره كبير، فـ" اللّسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة. فإنّه صغير جِرْمه، عظيم طاعته وجُرْمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلّا بشهادة اللّسان، وهما غاية الطّاعة والعصيان. وأعصى الأعضاء على الإنسان اللّسان؛ فإنّه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه. وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله. وإنّه أعظم آلة للشّيطان في استغواء الإنسان. واللّسان رحْب الميدان، ليس له مردّ، ولا لمجاله منتهى وحدّ. له في الخير مجال رحب، وله في الشّرّ ذيلٌ سحب، فمن أطلق عَذَبة اللّسان، وأهمله مرخيّ العنان سلك به الشّيطان في كلّ ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطرّه إلى البوار، ولا يكبّ النّاسَ في النّار على مناخرهم إلّا حصائدُ ألسنتهم، ولا ينجو من شرّ اللّسان إلّا من قيّده بلجام الشّرع، فلا يطلقه إلّا فيما ينفعه في الدّنيا والآخرة، ويكفّه عن كلّ ما يخشى غائلته في عاجله وآجله؛ ذلك أنّ خطر اللّسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلّا بالصّمت؛

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٨).

(٢) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص: ١٩٢).

فلذلك مدح الشّرع الصّمت وحثّ عليه"(١).

"إن الكلام ترجمان يعبّر عن مستودعات الضّمائر، ويخبر بمكنونات السّرائر، لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يقدر على ردّ شوارده، فحقّ على العاقل أن يحترز من زلّله، بالإمساك عنه، أو بالإقلال منه"(٢).

لقد جعل " سبحانه على اللسان غَلْقين: أحدهما: الأسنان، والثاني: الفم، وجعل حركته اختيارية، وجعل على العين غطاء واحداً، ولم يجعل على الأذن غطاء، وذلك لخطر اللسان وشرفه، وخطر حركاته، وكونه في الفم بمنزلة القلب في الصدر وذلك من اللطائف، فإن آفة الكلام أكثر من آفة النظر، وآفة النظر أكثر من آفة السمع، فجعل للأكثر آفاتٍ طبقين، والمتوسط طبقًا، وجعل الأقل آفة بلا طبق"(٣). فسبحان الخالق العليم الحكيم!

أيها الفضلاء، إن مما يدل على خطر اللسان: أن نطقه مسجل في صحيفة عمل العبد خيراً أو شراً، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾[الانفطار:١٠] ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾[الانفطار:١١]﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار:١٢].وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال معاذ: بلى، يا رسول الله، قال: كف عليك هذا- وأشار إلى لسانه- قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! قال: ثكلتك أمك، وهل يَكب الناسَ في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم؟!)(٤). وأن الكلمة التي يفوه بها قد تسوقه إلى الجنة أو تهوي به في نار جهنم، قال النبي صلى الله عليه و سلم:(إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم) (٥).

ومن ذلك أيضًا: أن أكثر ما يقع زلل الإنسان من قبل لسانه، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه ارتقى الصفا فأخذ بلسانه فقال: يا لسان، قل خيراً تغنم، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أكثر خطايا ابن آدم في

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٠٨).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ٣٤٠).

(٣) أدب الدنيا والدين (ص: ٣٤٠).

(٤) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٥) رواه البخاري

لسانه)(١).

ولما كان الأمر كذلك كانت اللسان إذا لم تستقم شاهدة على صاحبها يوم القيامة، سائقة له إلى النار، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النور:٢٤]، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: (الفم والفرج)، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: (تقوى الله وحسن الخلق)(٢).

فلهذا كله خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمة ذرابة الألسنة واعوجاجها، وحث على كفها وإمساكها، فعن سفيان بن عبد الله الثّقفيّ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، حدّثني بأمر أعتصم به. قال: قل: (ربّي الله ثمّ استقم). قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف عليّ؟. فأخذ بلسان نفسه ثمّ قال: (هذا) (٣).

أيها المسلمون، إن اللسان جارحة تكسب بنطقها وبصمتها الحسنات أو السيئات، فطوبى لمن أطلق لسانه في الحق، وحبسها عن الباطل، فعرف الخير فنطق به، وعرف الشر فسكت عن التفوه به.

واعلموا -عباد الله- أن للسان عبادات يتقرب بها إلى الله تعالى، فمن ذلك: النطق بالشهادتين، وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، ودعاؤه والثناء عليه وشكره، وتعلم العلم النافع وتعليمه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول الحق، ونصرة المظلوم، وإفشاء السلام، وإجابة الوالدين وإسماعهما الكلمات الطيبة، والصمت عن كل ما يغضب الله تعالى من الأقوال، وغير ذلك مما في النطق به أجر، وفي السكوت عنه ثواب.

فعلى المسلم أن يحرص على هذه الأعمال اللسانية الطيبة ونحوها، ويبادر إليها، وليعلم أن هناك خيراً عظيمًا ينتظره عند الله تعالى بها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن؛ سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)(٤). وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرتْ عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: (لا يزال لسانك

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢/ ٣١٢).

(٢) رواه الترمذي، وهو حسن.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٤) متفق عليه.

رطبًا من ذكر الله)(١).

قال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر: قلت لعمير بن هانئ: أرى لسانك لا يفتر عن ذكر الله، فكم تسبح في كل يوم؟ قال: مئة ألف إلا أن تخطئ الأصابع "(٢).

عباد الله، إن من ينظر إلى معاصي الجوارح يجد أن منها نصيبًا وافراً للسان، فكم منها من الخطايا القولية، والعثرات اللفظية التي أوردت أصحابها موارد الهلكة، فمن تلك الذنوب اللسانية:

الكفر القولي بالله تعالى، والتلفظ بما فيه تنقص من كماله وجلاله سبحانه وتعالى، والطعن في كتبه، والكذب عليه، وقال تعالى: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴾[النحل:١١٦].

ومن ذنوب اللسان التي لا تبقي صاحبها في دائرة الإسلام: الطعن في رسل الله وعلى رأسهم سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، ومنها الطعن في الإسلام ورميه بألفاظ الاستهزاء وعدم الصلاحية لهذا الزمان. قال تعالى في الذين طعنوا في رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾[التوبة:٦٥] ﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾[التوبة:٦٦].

ومن ذنوب اللسان: تسخط قدر الله، والغيبة والنميمة، والسب والشتم والبذاء، وقذف المحصنين والمحصنات، وشهادة الزور، والكذب، واللعن غير المشروع، وإفشاء الأسرار، وبث التخويف والرعب بين المسلمين، والمراء بالباطل، والحكم بغير ما أنزل الله، والقول على الله بلا علم، والشماتة بالمسلم، والتفوه بألفاظ العجب بالنفس والغرور والتكبر على الخلق بالقول، والمبالغة في مدح البشر، وعقوق الوالدين بالألفاظ كقول: أف وما فوقها من الألفاظ الجارحة، والمن بالعطاء والغش في المشورة والبيع والشراء. وغير ذلك مما فيه سخط الله تعالى وكراهته.

أيها الإخوة الكرام، إن من علم خطر لسانه، وأثر أقوالها في كسب السيئات وقف مراقبًا لها، فلا يدعها تنطق بكلمة إلا إذا عرف أنها خير من السكوت وإلا لاذ بحصن الصمت طلبًا للسلامة.

---

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (ص: ٢٦٦٠).

وهكذا كان يعمل الصالحون الأولون والعقلاء الفطنون.

فعن إبراهيم التيمي قال: حدثني من صحب ربيع بن خثيم عشرين عامًا فلم يسمع منه كلمة تعاب عليه(١).

وقال أبو بكر بن عيّاش: "اجتمع أربعة ملوك، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت، ولا أندم على ما لم أقل، وقال آخر: إنّي إذا تكلّمت بكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلّم بها ملكتها ولم تملكني، وقال ثالث: عجبت للمتكلّم إن رجعت عليه كلمته ضرّته، وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرّابع: أنا على ردّ ما لم أقل أقدر منّي على ردّ ما قلت"(٢).

أيها الإخوة الفضلاء، إن الدول المعاصرة، والإدارات الحديثة تضع قواعد أساسية لسير نظم الحياة والأعمال التي تحت ولايتها حتى تستقيم شؤونها وتسمي مجموع تلك القوانين بالدستور أو غير ذلك من الأسماء، ونحن إذا نظرنا إلى الإسلام سنجد أنه قد جاء من عند الله تعالى بدستور دائم معصوم يحفظ حياة الإنسان في الدنيا ويكون سبب نجاته في الآخرة، ومن خلال النظر في هذا الدستور السماوي العام نرى دستوراً خاصًا باللسان فيه قواعد أساسية لجعل اللسان عضواً صالحًا في بدن الإنسان يقول الخير ويصمت عن الشر، ويكون سببًا لصلاح حياة الإنسان مع ربه ومع أفراد جنسه.

فمن مواد ذلك الدستور المقدس:

المادة الأولى: كل قول تلفظه اللسان مدوّن في صحيفة الأعمال. قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨].

المادة الثانية: مجال القول في الخير فقط، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) (٣).

المادة الثالثة: النجاة في صمت اللسان عن كل باطل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من صمت نجا)(٤).

المادة الرابعة: حقيقة إسلام المرء سلامة المسلمين من لسانه، قال النبي صلى الله عليه و سلم: (

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص: ٦).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١١١).

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه الترمذي، وهو صحيح.

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) (١).

المادة الخامسة: حفظ اللسان طريق إلى الجنة، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)(٢).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن أكثر الناس يقتصدون في استعمال ما فيه حساب مالي وله عدّاد يحسب كمية الاستخدام كالكهرباء والهاتف والجوال وغير ذلك، فلو كان الكلام كذلك لاستعملوا من القول بقدر الحاجة وكان الصمت أكثر أحوالهم، أفما علموا أن نطق اللسان محسوب أيضًا وإن لم يكن له عداد يُرى في الدنيا، لكن فواتير ذلك سُترى بعد الموت.

ألا فلنعلم -عباد الله- أن هناك من يعد كلامنا عداً دقيقًا أشد من عدادات خدمات الحياة، والعجيب أننا-نحن المسلمين- ندرك ذلك، غير أن بعضنا مازال يطلق للسانه العنان في كل وادٍ، ولم يقصره على الحديث في الحق والسكوت في الباطل.

فهل من وقفة حازمة مع اللسان لنعلم بها متى نتكلم ومتى نسكت، فإن للكلام مواضع وللسكوت مواضع، وبذلك تكون النجاة، وسلامة الجوارح وصلاحها؛ إذ إن الجوارح تتبع اللسان استقامة واعوجاجًا، ففي الحديث: (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان- أي: تذل له وتخضع- فتقول: اتق الله فينا؛ فإنما نحن بك؛ فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا)(١).

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (اللّسان قوام البدن، فإذا استقام اللّسان استقامت الجوارح، وإذا اضطرب اللّسان لم تقم له جارحة)(٢).

وعن يونس بن عبيد قال: "ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله"(٣).

أيها الأحباب الفضلاء، إن من قام على لسانه بالمراقبة، ووقف على حركاتها بالمحاسبة، وألجمها بدوام الخوف من سوء العاقبة ملك أمرَه، وأصلح شأنَه مع الخالق ومع الخلق، وغرس في نفسه الراحة والاطمئنان، وزرع له في قلوب الناس الإجلال والمودة، وكان بذلك

---

(١) رواه الترمذي، وهو حسن.

(٢) الصمت، لابن أبي الدنيا(ص: ٦٩).

(٣) الصمت، لابن أبي الدنيا (ص: ٧٠).

قائداً لنفسه، لا مقوداً لها، يتحدث متى ما يريد، ويصمت حينما يشاء من غير أن تغلبه لسانه فينجر وراء أهوائها وفلتاتها.

ولينظر العاقل في العواقب الوخيمة التي تنتج عن هفوات اللسان، فإن فيها عن إطلاق القول مزدجرا، ولصاحب اللب الرشيد معتبرا. فكم من متكلم بباطل جنى به في الدنيا الحسرات والندامة، وكم تحت التراب من نادم ونادمة على إرخاء عنان اللسان وعدم التحرز بالصمت.

احفظْ لسانَك أيُّها الإِنسانُ ❊ لا يلدغنَّك إنه ثُعبانُ

كم في المقابرِ من قتيلِ لسانِه ❊ قد كانَ هابَ لقاءَه الشجعانُ(١).

عباد الله، لنعمل بهذه الوصية النافعة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين الحديثين الشريفين:

فعن الحارث بن هشام رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبرني بأمر أعتصم به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أملك هذا) وأشار إلى لسانه(٢).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)(٣).

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

---

(١) الأذكار النووية للإمام النووي (١/ ٤٢٤).

(٢) رواه الطبراني، وهو صحيح.

(٣) رواه الترمذي، وهو صحيح.

اللسانُ الثاني(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، يقول الله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[العلق:١] ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[العلق:٢] ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾[العلق:٣] ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾[العلق:٤] ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق:٥]. هذه الآيات الخمس هي بواكير الوحي المنزل من السماء على سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم، قرعت سمعه الشريف بكلمات العلم ووسائله وهي: (اقرأ-علَّم-يَعلَم-القلم)، وقد تكرر في هذه الآيات ذكر لفظ(اقرأ) مرتين، ولفظ (علّم) مرتين أيضًا. وهذا الاعتناء بذكر القلم ونتائجه في أول ما نزل من الوحي يدل على أهمية العلم وطرقه، ويشير إلى أن هذه الأمة هي أمة القراءة والعلم والقلم؛ فللقلم فيها شأن عظيم، وشرف كبير؛ ولذلك أقسم الله تعالى في كتابه الكريم بالقلم وبما يسطره، ولا يقسم تعالى إلا بعظيم، بل سمى سورة باسم القلم فقال عز وجل في أولها: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[القلم:١]، "فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته، وأول مخلوقاته، الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك، وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه، وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظًا تشفي مواعظه

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ١٤/٤/١٤٤٠م، ٢١/١٢/٢٠١٨م.

القلوب من السقم، وطبيبًا يبرئ بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، بالأقلام تُدبَّر الأقاليم، وتساس الممالك، والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع، فينسج حلل المعاني في الطرفين، فتعود أحسن من الوشي المرقوم، ويودِعُها حكمه فتصير بوادر الفهوم والأقلام نظام الأفهام، وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت"(١).

إذا أقسم الأبطالُ يوماً بسيفهمْ ... وعدُّوه ممَّا يكسب العزَّ والكرمْ

كفى قلمَ الكتَّاب مجداً ورفعةً ... مدى الّدهر أنَّ الله أقسم بالقلمْ(٢).

أيها المسلمون، تقدم في خطبة ماضية الحديث عن اللسان وعن أهميته في البيان، واليوم بإذن الله حديثنا عن اللسان الثاني ألا وهو القلم الذي له من الأهمية في الإبانة والإعلام ما للسان وقد يكون في بعض الأحوال أبلغ منه، وقد " قيل: البيان اثنان: بيان لسان، وبيان بَنَان، ومِن فضل بيان البنان أنَّ ما تبيَّنه الأقلام باقٍ على الأيام، وبيان اللسان تدْرُسه الأعوام"(٣).

ولذلك ذكر الحكماء أهمية القلم في بعض العبارات الموجزة، فقالوا: القلم أحد اللسانين، والأقلام مطايا الفطن، والقلم طبيب المنطق، والقلم أصم يَسمع النجوى، وأخرس يُفصح بالدعوى، وجاهل يعلَم الفحوى، والقلم سفير العقل، ورسوله الأنبل، ولسانه الأطول، وترجمانه الأفضل(٤).

عباد الله، إن القلم نعمة عظيمة من نعم الله تعالى على الإنسان؛ فكمْ تُجتلب به من مصالح ومنافع، وتدفع به من مفاسد ومضار، وكيف ستكون أحوال الناس بدون القلم، وكيف سيواجهون من المشاق إذا غابت القراءة والكتابة من بينهم؟!

فمن رزقه الله القراءة والكتابة فقد أولاه نعمة جزيلة، ومن حق هذه النعمة: شكر الله تعالى عليها، ومن شكر الله على ذلك: استعمال القلم في المباحات والطاعات، ومنعه عن كتابة ما يغضب الله عز وجل، فالكتابة مصدر للحسنات والسيئات، فمن أحسن استخدام القلم في

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢/ ٢٠٧).

(٢) الحماسة المغربية (ص: ١٢٢).

(٣) البحر المديد (٨/ ١٥٢).

(٤) أدب الكتاب للصولي (ص: ١٤).

كتابة ما يرضي ربه سبحانه كان قلمه طريقًا له إلى الجنة، ومن أساء استعماله فكتب به ما يسخط مولاه تعالى كان قلمه طريقًا له إلى النار وغضب الجبار.

أيها الأحبة الفضلاء، إن الأقلام متفاوتة في الرتب؛ فأعلاها وأجلها قدراً قلم القَدَر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق؛ كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله يقول: (إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)(١)، فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها. والقلم الثاني: قلم الوحي، وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله. والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمفتين. والقلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان، وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة. والقلم الخامس: قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياسة الملك، فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة، وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة. والقلم السادس: قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق. والقلم السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات. والقلم الثامن: قلم الشهادة وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق وتصان به عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره ويصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويشهد للمحق بحقه وعلى المبطل بباطله. والقلم التاسع: قلم التعبير وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره وما أريد منه، وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي كاشف له. والقلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه، وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة ومن قرن إلى قرن. والقلم الحادي عشر: قلم اللغة وتفاصيلها. والقلم الثاني عشر: القلم الجامع وهو قلم الرد على المبطلين ورفع سُنّة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها(٢).

إن الاستعمال الحسن للقلم له مجالات كثيرة فيها خير لصاحبه في الدنيا والآخرة، فالأقلام ليست متفقة على نوعية ما تكتب، وتسطير ما تدوّن، بل هي مختلفة باختلاف حامليها في الهدى

---

(١) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٢) ذكر هذه الأقلام بالتفصيل: ابن القيم رحمه الله، التبيان في أقسام القرآن (٢/ ٢٠٨) وما بعدها.

والضلال والعلم والفهم؛ فالقلم رسول صاحبه، وصورة لفكره وقلبِه وسلوكِه، وبه يسطر كلمات إلى الناس يقرأون من خلالها تصوره وأخلاقه وعمله وسلوكه؛ فلذلك تنوعت الأقلام؛ فهناك قلم خير وهناك قلم شر، وقلم هدى وقلم ضلال، وقلم منفعة، وقلم مضرة، وقلم صلاح وقلم فساد، وقلم عفة وحياء وفضيلة، وقلم فاحشة وفضيحة ورذيلة، وقلم طاعة واستقامة وإسلام، وقلم معصية وانحراف وكفر. وبهذا يتبين أن للقلم مجالات حسنة، ومجالات سيئة.

فمن المجالات الحسنة لاستعمال القلم: كتابة المصحف الشريف أو بعض آياته للحاجة إلى ذلك، كالتعلم والتعليم والدعوة، فلا كلام يكتب أحسن من كلام الله تعالى.

ومن ذلك: كتابة ما فيه ثناء وتعظيم وتقديس لله عز وجل، من باب الذكر أو الموعظة والدفاع ونشر الإجلال بين الناس، سواء كان ذلك تأليفًا، أم منشورات أم جملاً قصيرة تدعو إلى تعظيم الله جل جلاله.

ومن ذلك كذلك: الكتابة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل نشر هديه ومحبته وسيرته وسنته، والمنافحة عنه وبيان منزلته السامية.

ومن ذلك كذلك: التصوير المؤثر -شعراً أو نثراً- لما في الكون من الآيات المنشورة الدالة على قدرة الله وإبداعه في خلقه.

ومن ذلك أيضًا: الكتابة السليمة عن فضل الإسلام وكماله وصلاحه وعلو شأنه؛ نشراً له بين الناس، وتثبيتًا للمسلمين عليه، ودعوة للكافرين والعاصين، ودفاعًا عنه في وجه هجمات المبطلين.

وكم ترك لنا حملة الأقلام النقية من السلف من التراث العلمي المشرق الذي سالت به أقلامهم على الصفحات تدوينًا لشرائع الإسلام ولغته، وعلومه ومعارفه، ودعوة إلى الأخلاق المحمودة، وتحذيراً من الأخلاق المذمومة، فكانت تلك الأسفار العلمية التي تركوها وراءهم برهانَ صدقٍ على سلامة أقلامهم، وآيةً بينة على الغاية المعرفية التي بلوغها حتى صاروا مفخرة من مفاخر الإسلام والعربية عبر الأجيال في كل الأمم.

ومن المجالات الحسنة في استعمال القلم: تدوين العلم النافع، والإكثار منه، فالعلم بالكتابة يبقى، وبدونها يضيع، وقد بوب الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه: (باب كتابة العلم) وساق عدة أحاديث، منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما من أصحاب النبي

صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثًا عنه مني، إلا كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب(١).

ولقد أحسن عبد الله بن المبارك حيث يقول:

أيها الطالب علمًا ... أئتِ حماد بن زيدْ

فاقتبس علمًا وحلـ...مًا ثم قيّده بقيدْ(٢).

وقال آخر:

العلم صيدٌ والكتابةُ قيدُهُ ... قيِّدْ صيودَك بالحبال الواثقهْ

فمن الحماقة أن تصيد غزالةً ... وتفكّها بين الخلائق طالقهْ

ومن العلم النافع: العلم الدنيوي المشروع الذي فيه مصلحة للناس من طب وهندسة وصناعة وغير لك، فاستعمال القلم في تدوينه تعلمًا وتعليمًا ونفعًا استعمالٌ عظيم.

ومن المجالات الحسنة لاستعمال القلم: الكتابات الدعوية التي فيها تعليم للناس وإرشاد لهم، وفيها أمر بمعروف ونهي عن منكر، وكم شخصٍ اهتدى إلى الحق، وعدل عن طريق الباطل، وسلك سبل أعمال صالحة لم يكن يعملها، وسبب ذلك كلِّه كلمةٌ قرأها فأنارت له هذه الدروب.

والكتابة في هذا المجال ليست مقصورة على اللغة العربية، بل بأي لغة يعرفها الناس، وقد دخل في الإسلام في هذا العصر فئام من الناس على اختلاف لغاتهم وكان سبيلهم إليه: القراءة عنه باللغات التي يجيدونها. ومن ذلك أيضًا: الرسائل الطيبة إلى الوالدين التي فيها كلمات البر والحب والطاعة، فإنها تزرع في نفوسهم الرضا والراحة والسعادة، ومثلها كذلك الرسائل الحسنة إلى الأقارب والأرحام والأصدقاء، فكلمات تلك الرسائل تعمق روابط المحبة والوصال، وتذيب جليد القطيعة والانفصال.

ومن مجالات القلم الحسنة: مجال الإصلاح بين الناس وفض الخصومات بينهم، فقلم الصلح بين الخلق قلم شريف تحقن به دماء، وتسلم به حقوق، وتصان به حرمات. قال تعالى: ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢٧).

ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء:١١٤].

ومن مجالات القلم الحسنة: مجال توثيق الحقوق المالية من بيع وشراء وهبة ووصية ووقف ودَين وإجارة ووديعة وأمانة ونحو ذلك؛ فإن الكتابة لهذه الحقوق أدعى لإثباتها، وأبعد لها عن النسيان والاختلاف، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٨٢] ﴿ وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٨٣]. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده)(١).

ومن ذلك أيضًا: الكتابة بشفاعة حسنة، وقضاء حوائج الناس وتفريج كرباتهم بها، فرب أسطر يخطها المرء في شأن أخيه المسلم ينفعه بها فيجلب له بها خيرا، أو يدفع عنه شرا؛ يكون له بها ثواب عظيم.

فهذه-معشر المسلمين- بعض المجالات الحسنة لاستعمال القلم، وهي جزء من شكر العبد لربه على معرفته القراءة والكتابة.

وليْ قلمٌ في الخير يسخو بحبرِهِ... ويبخلُ إنْ شرٌّ دعاه ويَكتُمُ

فصيحٌ إذا ما الحقُّ قبَّل سِنَّهُ... ولكنه في باطل الأمر أبكمُ

عباد الله، وكما أن للقلم استعمالاً حسنًا يعود بالخير على صاحبه في عاجل أمره وآجله، فهناك أيضًا استعمال سيء للقلم بكتابة الكلام الذي يغضب الله تعالى، ويبعث على الشر بين الناس،

(١) متفق عليه.

وليس لهذا الاستعمال حد معلوم وأمثلة محصورة، بل مجاله رحب فسيح، ولكن من النماذج على الاستعمال السيء للقلم: الطعن في الله تعالى أو كتابه الكريم أو رسوله عليه الصلاة والسلام أو دينه الحنيف. ومن ذلك: كتابة ما فيه ظلم للناس كقتل بريء أو جرحه أو إيذائه، أو أخذ حقوقه أو منعه منها. ومن أمثلة قلم الظلم في التاريخ: ما فعله بَغِيض بن عامر بن هاشم حينما كتب ميثاق المقاطعة العامة من قريش لبني هاشم وبني المطلب، ونتج عنها حصار الشِّعب، فدعا رسول الله صلى الله على هذا الكاتب الظالم فشلَّتْ يده(١).

ومن الكتابات الآثمة: تحريف الحق وإلباسه على الناس كفعل اليهود الذين قال الله عنهم: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[البقرة:٧٩]. ويدخل في هذا: الكتابات المشككة بشرائع الإسلام، وإيراد الشبهات التي تلبس على الناس دينهم، وتحرفهم عن الهدى إلى الضلال.

ومن الكتابات الآثمة: تزوير الوثائق والسندات، وشهادة الزور، والأحكام القضائية العادلة عن الحق، فكم زاغت أقلام في هذا المجال فزورت وصايا وشهادات ملك الأرضي والبيوت وغيرها من الملكيات، واستُولِيَ على حقوق اليتامى والأرامل، وكم سفكت دماء وسلبت حقوق بجرة قلم ظالم!

ومن الكتابات الآثمة أيضًا: الكتابات الداعية إلى الخروج عن حصن الفضيلة إلى ركوب مطايا الرذيلة، وتركِ الحياء والعفة والحشمة والحفاظِ على العِرض والنسب، والمشجعةِ على ممارسة الفاحشة وسلوك طرقها، وما أكثر الأقلام الجارية في هذا المجال الآسن!

معشر المسلمين، إن مجالات القلم الحسنة، ومجالاته السيئة شاملةٌ للكلام كله: نثرِه وشعره، فكما أنه يطلب من المسلم أن يستعمل قلمه في المجالات الحسنة ويجنبه المجالات السيئة في النثر فهو مطلوب منه ذلك أيضًا في الشعر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الشعر بمنزلة الكلام؛ حسنُه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام)(٢).

فمن رزقه الله موهبة الشعر فليكتب منه الشعر النقي النظيف الذي ينطق بالحق ويدافع عنه، وينأ عن الباطل وينافحه، فما أحسنَ الشعر في الثناء على الله وعلى ما يحب، وفي تصوير

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وهو صحيح.

الفضائل والتحفيز عليها، وما أحدَّ سِنانه في مقارعة الباطل والمبطلين! قال تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾[الشعراء:٢٢٤] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾[الشعراء:٢٢٥] ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾[الشعراء:٢٢٦] ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[الشعراء:٢٢٧]. وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم)(١). وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان: (اهجهم – أو هاجهم – وجبريلُ معك) (٢).

وهذه المجالات السيئة لاستعمال القلم هي ثمرة لزيغ الأقلام وطغيانها، فمن خاف مقام ربه، ورجا منه تعالى حسن المنقلب فإنه يمسك عنان قلمه عن الجريان في ميدان السوء، متذكراً أنه سيحاسب عما كتبت كفه وسطّرت يده، فكتابات البنان كنطق اللسان.

قال الشاعر :

وما مِنْ كاتبٍ إلاَّ سيَفْنَى... وَيُبْقِي الدَّهْرُ ما كتَبَتْ يَدَاهُ

فلا تَكْتُبْ بكفِّكَ غيرَ شيءٍ.... يَسُرُّكَ في القِيامَةِ أنْ تَرَاهُ(٣).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) العقد الفريد (ص: ٣٥٢).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن القلم وسيلة للكتابة قد تطورت عبر الزمن، حتى وصل الناس اليوم إلى الكتابة الالكترونية، فظهر الحاسوب والفاكس والجوال ونحوها، وأصبحت هذه الآلات وسائلَ كتابةٍ أكثرَ من القلم المعهود، وغدا التعامل بها أسهل منه، وصارت لوحة المفاتيح في هذه الآلات هي القلمَ الجديد الذي يدوّن مستخدمُه عبرَه ما يشاء من الكلام.

وفي ظل هذه الوسيلة الحديثة كثر الكتّاب والكتابات، وتعددت مناهجهم ومجالات حديثهم، وخاصة بعد ظهور شبكة الانترنت وتنوعِ خدامات وسائل الاتصال عبرها من فيسبوك وواتساب وتلجرام وغيرها، وأصبحت هذه الخدمات في متناول الجميع -صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثًا، عِليةً وسُوْقة، صالحين وطالحين، وصار في مقدورهم أجمعين أن يكتبوا ما يريدون، وينشروا كتاباتهم على نطاق واسع بين الناس.

وهنا لابد لنا من وقفة ونحن نتكلم عن القلم واستعمالاته الحسنة وغير الحسنة.

فنقول: إن الكتابة في هذه الوسائل الحديثة ونشرَ المكتوب منها إلى الناس قد تكون في الأمور المباحة بين الأقارب والأصدقاء والجيران، وبين الباعة والمشترين، وبين أصحاب المصالح المعيشية المشروعة، فهذا الاستعمال لا بأس فيه.

وقد تكون الكتابة في الأمور التي يستحب نشرها؛ كالنصائح والمعارف والفضائل والعلوم النافعة، والتحذير من الشرور وأهلها. فهذه الكتابة خير عظيم، وأهلها يؤدون عملاً صالحًا حينما جعلوا حواسيبهم وجوالاتهم وسيلة خير استفادوا منها وأفادوا غيرهم بها، فكتبوا وقرأوا فيها المنشورات النافعة ونشروها، وتركوا المنشورات السيئة وحجبوها عن النشر.

وقد تكون الكتابة في الأمور التي تحرم كتابتها ونشر رسائلها، وهذا النوع يجب على المسلم الابتعاد عنه كتابة ونشراً، وللأسف أن أهل هذا النوع هم أكثر المستخدمين لهذه الوسائل الحديثة؛ فقد سخّروا جوالاتهم وحواسيبهم للكتابات السيئة، فبثوا عبرها منشورات الشبهات التي تتقيأ سمًا زعافًا يقتل حياة النفوس الطاهرة، ويُظلِم التصورات الصحيحة، ويكدر القلوب المشرقة، ونشروا كذلك منشورات الشهوات التي تهيّج إلى الحرام، وتدعو إلى مقارفة

الآثام، فكم أخرجوا بتلك الكتابات الآسنة من محصن ومحصنة عن خدر العفاف والنقاء، وكم فرقوا بين زوجين مؤتلفين، وكم أحدثوا من مشكلات أسرية داخل المجتمع المسلم.

فيا أيها المسلم، استفد من هذه الوسيلة في كتابة القول الفاضل، والجُمل المشرقة بالخير والهدى، طلبًا للثواب من الله تعالى، ونفعًا للناس، ودفعًا للضرر عنهم.

واجعل جوالك دليلاً لك إلى الخير، ومحذراً لك من الشر.. وعليك أن تحفظ فيه الأشياء الطيبة، وأن تحذف منه ما لا يُرضي الله تعالى؛ لأنه برهان على شخصيتك، والمعبر عن تصورك وسلوكك.

ولا تدخل به مجموعاتٍ أو مواقع أو صفحات أو حسابات تبث السوء والشر.. ولا تعمل مشاركة لمنشور أو مقطع صوتي أو مرئي حتى تتأكد أنه ليس فيه ما يغضب الله تعالى. واقرأ قبل أن تنشر، واستشر ذوي المعرفة قبل أن تصدق ما تشك فيه أو تجهله. وقبل أن تكتب اجعل نفسك كأنك تكتب إلى الله، أو تسطر رسالة ستعرض عليه، فماذا أنت كاتب فيها؟

سطورُك أقوالٌ ونشرُكَ لفظُها... وفي صُحُفِ الأعمال يا صاحِ حِفظُها

فسطِّرْ فإنّ المَلْكَ يكتبُ كلَّ ما... كتبتَ، وفي هذا لنفسك وعظها

وإياك ونشرَ الصور والمقاطع التي تثير الغرائز وتخدش الحياء، وإياك والمنشورات الطاعنة في الناس فالتثبت والتأكد مطلوب، فما أكثر الكذب والبهتان في وسائل التواصل الاجتماعي!

وأخيراً هذه رسالة خاصة أوجهها إلى كل إعلامي أو كاتب مرموق له قرَّاء ومتابعون كُثر فأقول له: اتق الله فيما تكتب؛ فاجعل قلمك قلمًا شريفًا نظيفًا يسطر ما يحبه ربك ويرضاه، فابنِ به حصون الفضل والفضيلة، واهدم به أوكار السوء والرذيلة، واجعل قلمك منارَ إشعاع يضيء بالكلمات النيرة التي تشرق بها النفوس والعقول، ويعشاْ بها خفافيشُ الضلال والظلام. وتذكّر أن الكلمة أمانة، وأن الكلمة قد يرقى بها صاحبها عند الله أعلى الدرجات، وقد يهوي بها إلى أسفل الدركات، وأن الكلمة مفتاح خير أو مفتاح شر.

عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله

له بها سخطه إلى يوم يلقاه)(١). فكان علقمة بن وقاص يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث!(٢).

قال الشاعر:

أَرَى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... ويُوشِكُ أَنْ يكُونَ له ضِرامُ

فإِنْ لَمْ يُطْفِهِ عُقَلاءُ قَوْمٍ ... فإِنَّ وَقُودَهُ جُثَثٌ وهامُ

فإِنَّ النَّارَ بالعُودَيْنِ تُذْكَى ... وإِنَّ الحَرْبَ أَوَّلُها كَلامُ (٣).

هذا وصلوا وسلموا على من أمرتم بالصلاة والسلام عليه...

(١) رواه مالك والترمذي، والنسائي.

(٢) الزهد لابن حنبل (ص: ١٥).

(٣) الحماسة البصرية (ص: ٤٦).

شُكرُ اليدين(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، نحمد الله تعالى على أنْ خلقنا فأتقن خلقنا، وصوّرنا فأحسن صورنا، وخلق لنا أعضاء بديعة نستعين بها في إقامة عبادتنا، وفي إصلاح عيشنا، ونعتمد على سلامتها في تسيير شؤون حياتنا، وفي الوصول إلى أسباب راحتنا وسعادتنا.

ومن تلك الأعضاء التي أكرمنا الله بها: اليدان، فما أعظم نعمة الخالق على الإنسان بهذا العضو؛ إذ كم يصل به إلى مصالح يبتغيها، ويدفع به أضراراً يخشاها.

تأمل-أيها الإنسان- في يديك وانظر ما أجملَ خلقهما وأحسنَ تركيبها! فقد خلقهما الله تعالى متساويتين، وجعلهما ممتدتين، مزودتين بعشرة أصابع، في كل يدٍ خمسةٌ منها، وهي الإبهام والسبابة والوسطى الخِنْصِر والبِنْصِر. وكل أصبع من الأصابع الخمسة له خلقة وشكل يخالف به سائر الأصابع.

وجعل سبحانه وتعالى اليدين أيضًا لينتين قويتين جميلتين، قابلتين للحركات المختلفة. وثبّت تعالى خلقهما في مكان مناسب من الجسم. وزوّدهما بأسباب الحياة والبقاء مدة حياة الإنسان ما لم يتعرضا لداء أو اعتداء.

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ٢١/٤/١٤٤٠هـ، ٢٨/١٢/٢٠١٨م.

عباد الله، لقد خلق الله تعالى في كل يد للإنسان ما به حياتها وسهولة الانتفاع بها، ففي كل يد كفٌّ بها راحةٌ وأصابع وسلاميات، وفيها رسغ وساعد ومرفق وعضد وعظام وأعصاب ودماء. ومن فضل الله تعالى على الإنسان في يديه: أن جعلهما قادرتين على الإمساك والإطلاق، وتحسس الأشياء، حتى صارا للأعمى بديلاً عن النظر في تمييز المحسوسات، وللأصم والأبكم لسانًا يعبر عن كثير من الكلمات بما تشكله الكف والذراع من حركات.

وتأمل -أيها الإنسان- في إبهامك تجد فيها آية من آيات الله تعالى الدالة على قدرته العظيمة، تلك الآية هي وجود البصمة فيها التي بها يتميز كل شخص عن غيره من بني آدم.

أيها الفضلاء، إن لليد شأنًا عظيمًا في الإسلام؛ ففي القرآن الكريم نجد آيات متعددة تنسب جميع كسب جوارح العبد إلى يده، قال تعالى: ﴿ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[الجمعة:٧]، وقال: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾[الشورى:٣٠]. ويبين الكتاب العزيز أن الأيدي ستشهد على أصحابها يوم القيامة بما يكانوا يعملون في الدنيا، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[يس:٦٥].

وفي حديث أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فضحك فقال: (هل تدرون مما أضحك ؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بعداً لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل)(١).

وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في كل يد نصف الدية وفي كلتيهما الدية كاملة، وفي كل أصبع عشر من الإبل كما في حديث عمرو بن حزم(٢).

أيها الأحباب الكرام، انظروا إلى هذه الحياة وما فيها من أبنية مشيدة، وأشياء مصنوعة، وخدمات حياتية متعددة، ومصالح دنيوية متنوعة، أليست من نتاج نعمة الله على الإنسان باليدين، فلو لم تخلق هذه النعمة هل كنا سنصل إلى هذه المنافع؟

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه النسائي، وهو صحيح.

وانظروا أيضًا في بيعنا وشرائنا، وتواصلنا وتعاملنا، وتعلمنا وتعليمنا، ألم تكن اليدان وسيلة إلى بلوغنا ما نريد من تلك المعاملات؟

ولكن ما أكثرَ غفلتنا عن نعمة اليدين، وشكر الله عليهما!

فمن أراد معرفة عظم هذه المنة فليتفكر في المنافع التي ينالها بسبب يديه، ولينظر إلى من فقد يديه أو إحداهما- ببتر أو جَرح أو شلل أو مرض-كم يعاني من المشقة في الوصول إلى ما يصل إليه صحيحُ اليدين.

ألا فلنشكر الله تعالى على نعمة اليدين باستخدامهما فيما يرضيه، قبل أن نقف بين يدي الله تعالى فتشهد علينا أيدينا بما جنت من الأعمال السيئة، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النور:٢٤].

ومن شكر الله تعالى على نعمة اليدين: استعمالهما في الأعمال التي يحب الله عملها، وكفهما عن الأفعال التي يكره الله فعلها.

أيها المسلمون، إن لليدين عبادات وأعمالاً صالحة كثيرة، فمن ذلك: الطهارة وبعض أعمال الصلاة، فباليدين يطهر العبد نفسه فيصير نظيفًا نقيًا، ويتوضأ ويستاك، فيقف بين يدي ربه للصلاة فيرفعهما مكبراً، ويضمهما إلى صدره قائمًا، ويعتمد عليهما راكعًا وساجداً، ويضعهما على فخذيه أثناء التشهد،

ويرفع سبابة يمينه متشهدا.

وباليد يعطي المسلم زكاته وصدقته فيحسن إلى المحتاجين والمعوزين، عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)(١).

وباليدين يجاهد المسلم في سبيل الله تعالى أعداءَ الدين فيرفع راية الإسلام ويعز المسلمين. قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾[التوبة:١٤].

وبأصابع اليدين يذكر المؤمن ربه تعالى ويثني عليه مسبحًا مكبراً مهللاً حامداً محوقلاً محسبلاً. عن يسيرة رضي الله عنها وكانت من المهاجرات قالت: قال لنا رسول الله صلى الله عليه

---

(١) متفق عليه.

وسلم: (عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس، واعقدن بالأنامل؛ فإنهن مسؤولات مستنطقات، ولا تغفلن فَتُنْسَيْنَ الرَّحْمَةَ)(١).

وباليدين يعين الإنسان والديه ويقوم بخدمتهما، وبهما يأخذ بيد الأعمى والعاجز، وبهما يمسح رأس اليتيم فيغسل عن وجهه دمعة اليتم، ويرسم على شفتيه ابتسامة السعد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أردت تليين قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم)(٢).

وباليدين يرفع المرء الدعاء إلى الله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين) (٣).

وباليدين يعمل الإنسان ويكتسب أسباب المعيشة، فعن المقدام رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (ما أكل أحد طعامًا قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)(٤).

والمسلم بيمينه يأكل ويشرب ويعطي ويأخذ، ويصافح الناس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(ليأكل أحدكم بيمينه ويشرب بيمينه، وليأخذ بيمينه وليعط بيمينه؛ فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله، ويعطي بشماله)(٥). وعن أنس بن مالك، عن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مسلمين التقيا، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، إلا كان حقًا على الله أن يحضر دعاءهما(٦)، ولا يفرق بين أيديهما حتى يغفر لهما)(٧).

أيها الإخوة الفضلاء، إن من عرف اللهَ تعالى وعرف عظم نعمته عليه باليدين استعملهما فيما يحبه المنعم عليه بهما، غير أن هناك من لم يكن كذلك حينما صرف قدرتهما فيما يغضب الله تعالى من الأعمال المتعدية على حق الخالق وعلى حق المخلوقين.

فمن سيئات اليدين: التعدي على الأبرياء من الخلق بقتل أو جرح أو ضرب؛ لأن هذا نوع من الظلم وقد حرم الله تعالى الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرمًا، وهذا التصرف الضار

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود، وهو حسن.

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

(٦) أي: يستجيب دعاءهما.

(٧) رواه أحمد، وهو صحيح.

بالناس ليس من صفات المسلم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)(١). فأين هذا المعتدي من الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في سلامة يديه من ظلم الخلق؟ عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط بيده ولا امرأة ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل)(٢). وعن أبي مسعود الأنصاري قال: كنت أضرب غلامًا لي، فسمعت من خلفي صوتًا: (اعلم أبا مسعود، للهُ أقدر عليك منك عليه)، فالتفتُ فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله فقال: (أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار)(٣).

أفلا يتذكر من ظلم بيده الناس القصاصَ منه يوم القيامة بين يدي الحكم العدل؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ضرب سوطًا ظلمًا اقتص منه يوم القيامة)(٤).

ومن سيئات اليدين: الاعتداء ظلمًا على أموال الناس وممتلكاتهم بحرابة أو سرقة أو نهب أو سلب أو اختلاس أو خيانة أو رشوة أو تدليس أو تطفيف، أو نحو ذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه)(٥). وقد جاء من الوعيد ما فيه فيه زجر لكل معتدٍ بقوة يده على حق غيره، فمن أيقن به كفَّ عن ذلك الظلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة، قالوا: وإن كان شيئًا يسيراً يا رسول الله، فقال: وإن كان قضيباً من أراك)(٦).

حتى في وقت الشدائد والمجاعات يجب على المسلم أن يمسك يده عن المال الحرام، ويصبر على الحلال ولو قل حتى يفرج الله عنه، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حماراً وأردفني خلفه وقال: (يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناسَ جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال:

---

(١) رواه أحمد، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البزار والطبراني بإسناد حسن.

(٥) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٦)رواه مسلم.

تعفف، يا أبا ذر)(١).

ومن سيئات اليدين: لطم الخدود، وتمزيق الثياب عند المصيبة؛ كموت حبيب أو قريب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية)(٢).

ومن سيئات اليدين: مصافحة النساء اللاتي لا يحل للمسلم مصافحتهن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن يطعن في رأس أحدكم بِمِخْيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له)(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه و سلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾[الممتحنة:١٢]. قالت: وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها(٤). ولفظ مسلم: (وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: (قد بايعتكن) كلاماً).

ومن سيئات اليدين: تكفف الناس وسؤالهم أموالهم تكثراً وكسلاً عن العمل، وليس عن ضرورة ملحة لا يجد لكشفها غير التكفف. فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزعةُ لحم)(٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: (من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر)(٦).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اليد العليا خير من اليد السفلى، والعليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة)(٧).

ومن سيئات اليدين: الكتابة بالطعن في الله تعالى أو رسوله أو دينه أو المحرِّفة لكتابه أو

---

(١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣)رواه الطبراني والبيهقي ورجال الطبراني ثقات رجال الصحيح.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه مسلم.

(٧) متفق عليه.

تشريعه، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[البقرة:٧٩].

أو الكتابات المسيئة إلى عباد الله الأبرياء بالتهم والسب، أو المسطّرة للشبهات التي تكدر العقول والنفوس، أو الشهوات التي تفسد القلوب والسلوك.

وستشهد البنان على ما خطت من حروف العصيان على صاحبها يوم المعاد، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النور:٢٤].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن اليدين حينما تخرجان عن شرع الله تعالى، فتقعان في المعاصي اليدوية فإن الشريعة قد جعلت زاجرين لهما عن تلك الذنوب: زاجراً في الدنيا، وزاجراً في الآخرة.

فأما زاجر الدنيا فهو على قسمين: زاجر بالحد، وزاجر بالتعزير.

فأما زاجر الحد، فإن هناك خطايا يدوية جعل فيها الشارع الحكيم حدوداً شرعية تأديبًا للعاصي، وتحذيراً لغيره أن يفعل مثل فعله، ومن هذه الحدود: حد السرقة وحد الحرابة، فحد السرقة المستوفية لشروط القطع يكون بقطع اليد من الرسغ كما قال تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[المائدة:٣٨] ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[المائدة:٣٩]. وأما حد الحرابة فيكون بقطع الأيدي والأرجل من خلاف: يد يمنى برجل يسرى، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[المائدة:٣٣] ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[المائدة:٣٤]. وهذان الحدان يزجران المحدود عن المعاودة، ويزجران غيره عن المقارفة.

وأما زاجر التعزير، فهناك ذنوب تجنيها اليدان لكن لم يرد في الشريعة فيها حد معلوم، وإنما ورد فيها تعزير والتعزير هو: "عقوبة مشروعة على معصية أو جناية لا حد فيها، ولا كفارة"(١). وهذه العقوبة التعزيرية يقدرها القاضي؛ فقد تكون بحبس أو عقوبة مالية على الجاني أو غير ذلك مما يراه القاضي من وسائل التأديب، ومن تلك الذنوب المتعلقة باليدين: الغصب والنهب والاختلاس.

أيها الأحباب الفضلاء، وأما زاجر الآخرة فهو ذلك الوعيد الذي أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن المتعدي بيده ينتظره عقاب شديد يوم القيامة، كقول رسول الله صلى الله

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته (٧/ ٥١٤).

عليه وسلم: (من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)(١).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)(٢).

أيها الأحباب الفضلاء، هذا نداء لكل من لم يحفظ يديه في إطار الحق، بل جعلها في ممتدة في بوتقة الباطل؛ أن يرجع إلى الله تعالى ويتوب إليه، ويعمق في قلبه شعور الخوف من ربه تعالى حتى يحجزه عن التعدي بيده، فابن آدم المقتول منعه من قتل أخيه خوفُ الله تعالى كما قال عز وجل عنه: ﴿ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[المائدة:٢٨].

وليكثر هذا المرء من الأعمال الصالحة المكفرة للذنوب بعد التوبة إلى الله، ومن تلك الأعمال الماحية للخطايا: الوضوء، وكثرته تستلزم كثرة التنفل بالصلاة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء)(٣).

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية...

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

حفظ الرجلين (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

يقول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[النور:٤٥].

أيها الناس، إن الخلق مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى، وآية بديعة من آيات قوته وإتقان صنعه، والإنسان خلق من خلق الله جل وعلا أوجده سبحانه في هذه الدنيا تام الخلقة، مستوفي الأعضاء، جميل النشأة، حسن التصوير، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومما خلق الله تعالى من الأعضاء للإنسان: آلة المشي، ففي الآية السابقة ذكر الله تعالى أن ماء الحياة هو أصلٌ لخلق كل ما يدب على هذه الأرض، وبعد ذلك بيّن تعالى وسيلة مشي هذه المخلوقات؛ فذكر أن منها ما يمشي على بطنه كالأفاعي، ومنها من يمشي على رجلين كالإنسان والطير، ومنها من يمشي على أربع كالأنعام.

ومن نظر في آلة مشي الإنسان يرى أن الله تبارك وتعالى قد ميزه بتلك الآلة عن سائر المخلوقات، فخلق له رجلين اتصفتا بأحسن ما يمكن أن تكون عليه من الصفات؛ فقد خلقهما الله تعالى اثنتين ولم يكونا واحدة، وجعلهما متساويتين غير متباينتين، وجعلهما في أسفل البدن

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ٥/جمادى الأولى/١٤٤٠هـ من ٢٠١٩/١/١١م.

لا في أعلاه، وكونهما أحسن تكوين، فأنشأهما من لحم وعظم وعصب ودم، وجعل فيهما القوة التي بها يستطيع الإنسان حمل جسمه، والمشي بهما إلى مسافات بعيدة، ودفع ما يريد دفعه، وغير ذلك مما يحتاج فيه إلى قوة الرجلين.

كما برأهما الله تعالى لينتين ليستطيع بهما المرء سهولة الحركة وتنوع التصرف؛ فعليهما يمشي، وبهما يتسلق المرتفعات ويصعد العوالي، وعليهما يقعد أنواع القعدات، وغير ذلك من منافع لين الرجلين.

وكوّن سبحانه وتعالى كل رِجل من قدم وساق وركبة وفخذ، وفي كل واحد من هذه الأجزاء أشياء دقيقة من الخَلق ليكمل انتفاع الإنسان بها، فسبحان الخالق القدير!

أيها المسلمون، هذه منزلة الرجلين في الخلق والنفع، وأما منزلتهما في الشرع فإنهما فيه عضو ذو مكانة مهمة في بدن الإنسان؛ فلذلك رتب على الاعتداء عليهما القصاص في حال العمد: الرجل بالرجل واليمنى باليمنى واليسرى باليسرى، وفي حال الخطأ وشبه العمد رتب على ذلك عوضًا ماليًا، ففي الرجلين كلتيهما الدية كاملة، وفي كل رجل نصف الدية، وفي كل أصبع عشر من الإبل، قال الله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[المائدة:٤٥]. وفي حديث عمرو بن حزم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وفي كل أصبع من أصابع اليد والرجل عشر من الإبل)(١).

عباد الله، ليتأمل الإنسان في نعمة الله عليه بالرجلين حتى يدرك عظم منة الله عليه بهما، فبرجليه يعيش حياة طبيعية مستقرة؛ يمشي بهما إلى حيث يشاء، ويتحرك كيف يشاء، ويلبس ما يشاء، ويمدهما ويثنيهما، ويرفعهما ويخفضهما، ويستعين بهما في صلاح عيشه الدنيوي كما يريد، ويتجمل بهما بين الناس بلا تعيير ولا نعت انتقاص يكدر خاطره، ويؤذي شعوره.

ولينظر نظرة أخرى إلى من أصيب في رجليه ببتر أو عرج أو عاهة أو ألمٍ كم يجد من العناء والنصب، ويفقد من المصالح والمنافع، ويلاقي من الضرر، ويخسر من المال والعافية، وكم يشتاق أن يكون ذا رجلين صحيحتين حتى يصل بذلك إلى ما يتمناه.

ألا فليستيقظ الإنسان الغافل الصحيح الرجلين بعد هذا ليشكر الله على هذه النعمة، قبل أن لا يذكر قدرها إلا بعد إصابته بها، نسأل الله السلامة للجميع.

---

(١) رواه النسائي، وهو صحيح بشواهده.

وإن من شكر الله تعالى على نعمة الرجلين السليمتين: استعمالهما فيما يحب الله تعالى، وإبعادهما عما يكره ويسخط. سئل أبو حازم رحمه الله فقيل له: " فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيتَ ميتًا غبطتَه استعملت بهما عمله، وإن رأيت ميتًا مقته كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله عز وجل"(١).

أيها الأحبة الفضلاء، إن استعمال الرجلين في مصالح الحياة الدنيوية لا يغفل عنه الإنسان، لكن هناك أعمال صالحة يصل المرء إليها باستعمال نعمة المشي، وهذه هي التي يغفل عنها كثير من الناس، فكان لابد من التذكير بها حتى نسعى إليها.

فمن العبادات التي تؤديها الرجلان:

المشي- إلى المساجد لصلاة الجماعة والجمعة، وها أنتم -أحبابي- قد وصلتم إلى هذا المسجد ماشين على أقدامكم أو راكبين سياراتكم فاحمدوا الله على هذه النعمة. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الجمعة:٩].

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في بيان فضل المشي- إلى الصلوات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سره أن يلقى الله غداً مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن؛ فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه و سلم سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف)(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ؛ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها) (٣).

---

(١) حلية الأولياء (٣/ ٢٤٣).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وهو صحيح..

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضًا: (وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة)(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: (إذا خرج المسلم إلى المسجد كتب الله له بكل خطوة خطاها حسنة، ومحى عنه بها سيئة حتى يأتي مقامه)(٢).

وعن عثمان رضي الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من توضأ فأسبغ الوضوء، ثم مشى إلى صلاة مكتوبة فصلاها مع الإمام غفر له ذنبه) (٣).

ومن العبادات التي تؤديها الرجلان: وصل الصفوف في الصلاة، وعدم ترك فرجة في الصف، ولذلك أجر عظيم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خياركم ألينكم مناكب في الصلاة، وما من خطوة أعظم أجراً من خطوة مشاها رجل إلى فرجة في الصف فسدّها)(٤).

ومن العبادات التي تؤديها الرجلان كذلك: أداء بعض أفعال الصلاة، ومن ذلك القيام، وخاصة الوقوف الطويل في الصلاة كصلاة الليل، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له:لم تصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً)(٥). وفي فضل القيام في الصلاة قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: (صلاة القاعد نصف صلاة القائم)(٦).

ومن العبادات التي تؤديها الرجلان: السفر إلى الحج والعمرة والقيام بأعمالهما.

ومن العبادات كذلك: خدمة الوالدين، وقضاء حوائج المسلمين، والسعي على الأرملة واليتيم والمسكين، والشفاعة الحسنة للناس، والمشي إلى نصرة المظلوم.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إلى الله؟ فقال: أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم: تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دَينًا أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد -يعني مسجد

---

(١) رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بسند حسن.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه ابن خزيمة، وهو صحيح.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط، وهو حسن.

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

المدينة- شهراً، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضى ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام)(١). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله تعالى قدميه يوم تزل الأقدام)(٢).

أيها المسلمون، ومن العبادات التي تؤديها الرجلان: الخروج لطلب العلم النافع، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة)(٣). " أي: من مشى إلى تحصيل علم شرعي قاصداً به وجه الله تعالى جازاه الله عليه بأن يوصله إلى الجنة مسلمًا مكرمًا "(٤).

وقد ضرب علماؤنا السابقون رحمهم الله أروع الأمثلة في المشي- إلى طلب العلم وقطعوا المسافات الطوال لإدراك بغيتهم من العلم(٥). حتى لقد سار جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عنهما من المدينة إلى عبد الله بن أنيس رضي الله عنه في الشام من أجل حديث واحد!(٦).

ومن العبادات التي تؤديها الرجلان أيضًا: الخروج إلى طلب الرزق من أجل الاستعانة بذلك على عبادة الله، وإعفاف النفس عن الآخرين، وتوفير القوت للأهل والأولاد والتصدق على المحتاجين. قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[الملك:١٥].

ومن العبادات التي تؤديها الرجلان: المشي- إلى جهاد أعداء الدين، وفي فضله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار)(٧).

عباد الله، ما أجمل أن يمشي- المسلم إلى زيارة أخيه المسلم وتفقد أحواله وتجديد عهد المحبة بينهما، فالمشي- إلى ذلك عبادة من العبادات، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملَكًا فلما أتى عليه قال: أين تريد؟

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، وهو حسن.

(٢) رواه أبو نعيم وأبو الشيخ الأصبهاني، وهو حسن.

(٣) رواه مسلم.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٩/ ٤٢١).

(٥) ينظر في هذا الموضوع كتاب: الرحلة في طلب الحديث، للخطيب البغدادي.

(٦) جامع بيان العلم وفضله - مؤسسة الريان (١/ ١٨٦).

(٧) رواه البخاري.

قال: أريد أخًا لي في هذه القرية قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه(١).

أما إذا كان المزور مريضًا فالأجر أعظم، والأثر أكبر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من عاد مريضًا أو زار أخاً له في الله ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا)(٢).

ومن حق المسلم على أخيه المسلم المشي إلى إجابة دعوته، وتشييع جنازته، كما قال عليه الصلاة والسلام: (حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده وإذا مات فاتبعه)(٣).

فاتبعه)(٣).

ولمواضع العبرة نصيب للرجلين من العبادة، فالسير في الأرض للتفكر والنظر في بديع خلق الله، ورؤية مصارع العصاة والحائدين عن الحق عبادة، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[الأنعام:١١].

ومشي المسلم إلى المقابر للاتعاظ والاعتبار عبادة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإن فيها عبرة) (٤).

أيها الأحبة الفضلاء، إن الإنسان إذا انحرف عن الهداية انحرفت قدمه عن الصراط المستقيم، فمشت رجلاه إلى أفعال سخط الله، أو مواضع غضبه تبارك وتعالى، وحينما نتكلم عن المشي بالرجلين إلى الحرام فإن ذلك يشمل من وصل إلى الحرام على قدميه أو على مركب، فلا فرق في ذلك.

فمن مشى إلى قتل نفس بريئة أو أخذ مال معصوم أو ممارسة فاحشة فقد عصى الله وما شكر ربه تعالى على نعمة المشي وغيرها من سائر النعم.

ومن سعى برجليه إلى الفتن واستشرافها فما أدى شكر نعمة المشي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أحمد، وهو حسن صحيح.

فيها خير من الساعي، ومن يشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به)(١).

إن من سيئات الرجلين: أن يمشي بهما المسلم إلى النميمة أو تفرقة الصف المسلم أو إثارة الحقد والبغضاء بين المسلمين، فما أشد ما ينتظر هذا الماشي من العقاب، فعن ابن عباس قال: مر النبي صلى الله عليه و سلم بقبرين فقال: (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)(٢).

ومن سيئات الرجلين: الاختيال في المشي- تكبراً وزهواً، فالمسلم مأمور بالتواضع في المشي- والبعد عن التكبر فيه، قال تعالى: ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[لقمان:١٨] ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[لقمان:١٩]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بينما رجل يمشي- في حلة تعجبه نفسه، مرجل رأسه يختال في مشيته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة) (٣).

وقال ابن إسحاق لما سرد قصة أبي دجانة وأخذه السيف من رسول الله يوم أحد وتبختره بين الصفين به: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى أبا دجانة يتبختر: (إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن)(٤).

ومن سيئات الرجلين لدى المرأة: كشف قدميها وما فوقهما من الرجلين لينظر إليهما من لا يحل له النظر إلى ذلك، والمشي- في الطرقات والأسواق بإصدار صوت الحذاء أو النعل للفت الأسماع والأنظار إليها ليعلم ما عندها من الحسن والزينة، قال تعالى:﴿ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾[النور:٣١]. واللائق بالمؤمنة ستر زينتها إلا لمن أحل الله له النظر إليها، والمشي بين الناس بحياء من غير استدعاء النظر إليها، قال تعالى عن ابنة صاحب مدين: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[القصص:٢٥].

ومن السيئات كذلك: أن يصيب الإنسان بقدمه أو رجله أحداً ظلمًا، ركلاً أو رفسًا، فمن فعل ذلك اقتص منه يوم القيامة.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٦).

ومن سيئات الرجلين أيضًا: الذهاب إلى أماكن اللهو والمجون كدور الرقص والغناء، وكذلك تتبع النساء وملاحقتهن في الأسواق والطرقات، فإن هذا العمل المشين لا يليق بذي خلق كريم، ولا بامرئ يخاف الله العظيم، ويخشى على حرماته. يذكر بعض أهل الأدب في القرون السالفة أن امرأة قدمت مكة للحج أو العمرة فطافت يومًا بالبيت وحدها، فجعل أحد الماجنين يتتبعها ويريد منها أن تكلمه وهي تأبى، وفي اليوم التالي جاءت لتطوف مع أخيها فجاء ذلك الرجل لملاحقتها، فلما رأى أخاها معها انكف وانزجر، فقالت متمثلة بقول أحد الشعراء:

تَعْدُو الذئابُ على مَنْ لا كِلاَبَ له ... وتَتّقي صَوْلَةَ المُسْتأسِدِ الحامي(١).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) كتاب الأغاني، للأصفهاني (١/ ٨٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن استقامة المرء في رجليه، وحفظهما بلزوم طريق الحق، وعدم انحرافهما عنها دليل على محبة الله لصاحبهما، فما أحسن أن يكون المسلم كذلك، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها)(١). والمعنى: أن الله يسدده في هذه الجوارح فلا يقع منه بها إلا الخير.

وأما من لم تستقم رجلاه على صراط الحق فليتذكر أنهما ستشهدان عليه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[يس:٦٥]، وعن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: هل تدرون مما أضحك ؟ قال: قلنا الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم ؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي قال: فتنطق بأعماله قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بعداً لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل)(٢).

عباد الله، ألا من كان منحرف الخطى عن الجادة سالكًا مناهج الغضب فليتب إلى ربه وليكن مثل ذلك القائل الكريم:

لعمرك ما أهويتُ كفّي لريبةٍ ... ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي

ولست بماشٍ ما حييتُ بمنكر ... من الأمر ما يمشي إلى مثله مثلي(٣).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) أمالي القالي (ص: ٢٤١).

فعلى المسلم العاقل أن يسارع إلى مسالك الخيرات، ومواضع الطيبات، وخصال الصالحات، وليستغل نعمة المشي- إلى ذلك قبل أن يندم حينما يحبس عن ذلك، وليكن له قدوة بأولئك الصالحين الذين يسارعون إلى الخير مع وجود الإعاقة في أرجلهم، فهذا عمرو بن الجموح رضي الله عنه كان رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا له: إن الله عز وجل قد عذرك، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك، وقال لبنيه: ما عليكم أن لا تمنعوه؛ لعل الله أن يرزقه الشهادة، فخرج معه فقتل يوم أحد(١)، رضي الله عنه وأرضاه.

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٠).

حفظ البطن (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن خلق الإنسان آية باهرة على قدرة رب العالمين، وبرهان ساطع على إبداع أحسن الخالقين، فلو فكر الإنسان فيما أودع الله فيه من أمارات كماله، وأدلة توحده وجلاله لأقبل عليه بالعبادة والشكر، ولانقطع إليه بالثناء والحمد، فشغل به عن غيره، وانصرف إليه عن كل شاغل عنه.

وبعون الله تعالى سنقف اليوم متأملين في عضو من أعضاء الإنسان ليدعونا ذلك إلى شكر الله عليه، واستعماله في مراضيه، هذا العضو هو البطن.

انظر -أيها العاقل- بعين بصرك وعين بصيرتك إلى نعمة الله عليك ببطنك، لترى كم فيه من النعم والمنن، وكم فيه من مظاهر رحمة الله بك، وآثار إكرام الله لك. فالبطن لك مستودع الحياة الذي تقوم على ما فيه حياة بدنك وصحته؛ فقد جعل الله تعالى فيه أجهزة متعددة تقوم بدور الحفاظ على نعمة الحياة؛ ففيه الجهاز الهضمي، والجهاز التناسلي، والجهاز البولي، وفي كل جهاز منها أجزاء دقيقة يقوم عليها، ويستمر عمله بها.

انظر كم في بطنك من عجائب الإنشاء ودقة الخلقة، وعظم وظائفها، واستمرار أعمالها، فتأمل في المعدة، والأمعاء الغليظة والأمعاء الدقيقة، والبنكرياس، والزائدة الدودية والكبد والمرارة

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني، صنعاء، في ١٤٤٠/٥/١٩هـ، ٢٠١٩/١/٢٥م.

والطحال والصفاق والكلى والحالبين والمثانة وغيرها، ستجد أن سلامتها سبب لسلامتك وابتهاجك ونشاطك، وأن سقمها طريق إلى عنائك وخسارتك وإعاقتك وتكدر عيشك.

وتأمل كذلك في الوظائف التي يقوم بها الجهاز الهضمي؛ فأنت تأكل وتشرب فتسلم الطعام إلى هذا الجهاز وتنتهي وظيفتك إلى هنا، وهو الذي يتولى بعد ذلك هضمه وتنقيته وامتصاص ما يفيد الجسم منه، وطرد الفضلات الزائدة، وكل ذلك يقوم على عمل دقيق واتقان بديع من غير كسل ولا توقف.

فلم يحتج الغذاء بعد ذلك منك إلى عمل آخر أو قضاء وقت في متابعته والاطمئنان على الانتهاء منه، وتوزيع حصص البدن منه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أيها المسلمون، ولو نظرنا نظرة أخرى إلى بديع خلق الله لعضو البطن فسنرى عجبًا، فمن ذلك: أن الله تعالى لما جعل البطن حاويًا ما به بقاء حياة الإنسان مما يحتويه من الأجهزة والأعضاء فإنه قد اختار أن يكون البطن في منتصف بدن الإنسان من أجل الحفاظ عليه، كما أنه تعالى جعل أكثر أعضائه وأجهزته فيه في مقدمة الجسم ولم يجعلها في ظهره؛ من أجل مصالح كثيرة للإنسان، منها: أن يرى الخطر عليها فيحميها منه، فسبحان الخالق القدير.

إن المرء لو بقي يسرد آيات قدرة الله في كل جزء في البطن مما يذكره الأطباء والحكماء لما كفته خطب عديدة، غير أن الإشارة إلى بعض ذلك تكفي اللبيب ليعتبر فيشكر بارئه العظيم.

أفلا نشكر الله تعالى على نعمة البطن التي منّ بها علينا، فنملأه بالحلال، ونحميه من الحرام؛ فإن الشكر طريق إلى دوام النعمة، وابتعاد النقمة.

عباد الله، لما كان أكثر المهام التي يقوم بها البطن هي استقبال الطعام والشراب وهضمهما وتحويلهما إلى مواد نافعة للجسم، وإخراج ما زاد عن ذلك إلى خارج البدن؛ فإن شكر الله عليه: أن لا يدخل المسلم فيه غذاء إلا من حلال، وأن ينزهه عن كل حرام من مطعوم ومشروب. قال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[النحل:١١٤].

والحرام في المطعوم والمشروب يشمل ما كان حرامًا في أصله مثل أكل لحم الخنزير والميتة، ومهر البغي وحلوان الكلب، وثمن الكلب، وشرب الخمر وسائر المسكرات، ويشمل أيضًا كل طعام وشراب مباحين جاءا من طريق حرام كالربا والرشوة والغش والسرقة وأخواتها، وسائر أكل أموال الناس بالباطل.

إن اختيار الحلال والتنزه عن الحرام هو من حفظ البطن المأمور به، والحياء الصادق من الله تعالى، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استحيوا من الله حق الحياء)، قال: قلنا: يا نبي الله، إنا لنستحيي والحمد لله، قال: (ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء)(١).

فمن شكر الله تعالى على نعمة البطن: أن لا يدخل إليه المسلم إلا ما أحله الله فيكون ذلك البطن خاليًا من الحرام، فينبت الجسم من آثار ذلك الطعام نباتًا حسنًا، فيكون أثره صلاح حال المسلم في دنياه وآخرته.

إن المؤمن يتحرى الحلال في طعمته وشربته، ولا تغلبه شهوته وهواه وحرصه على لذات الدنيا ومصالحها حتى يوصل الحرام إلى بطنه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني لذلك هذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه(٢). سبحان الله! هكذا بطون المؤمنين النقية لا تقبل لقمة الحرام وإن كانت من غير تعمد.

وعلى رب الأسرة وعائلها الحريص على إطعام أسرته أن ينتبه من أن يصل به حرصه إلى جلب الحرام وإطعام أهله وأولاده منه، ولاشك أن الأسرة الصالحة من زوجة وأولاد يعينون عائل الأسرة من زوج وأب على الحلال، "وهكذا كانت عادة النساء في الأزمنة الفاضلة؛ كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته: إياك وكسب الحرام؛ فإنا نصبر على الجوع والضر، ولا نصبر على النار"(٣). قال بعض الصالحين: " الدنيا بطنك، فبقدر زهدك في بطنك زهدك في الدنيا"(٤). يعني: يعرف زهد الإنسان بزهده فيما يدخل بطنه؛ فإن كان لا يتحرى ذلك فليس بزاهد ولو زهد ثوبه ومنظره، وإن كان متحريًا بعيداً عن إدخال الحرام إليه فهو الزاهد

---

(١) رواه الترمذي، وهو حسن

(٢) رواه البخاري.

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٥٨).

(٤) حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٣).

حقًا، ولو حسن ملبسه، وبرقت النعمة على وجهه.

عباد الله، إن أكل الحرام له آثار سيئة على صاحبه في الدنيا والآخرة، فلو فكر أَكَلةُ الحرام بذلك وأيقنوا بما جاءت به النصوص الشرعية من التحذير من ذلك لارتدعوا وسلموا، وقل الفساد في المجتمع؛ إذ إن من أعظم أسباب الفساد المالي والإداري والأخلاقي أكل المال الحرام.

فمن تلك الآثار السيئة: عدم قبول الأعمال الصالحة عند الله وحجب إجابة الدعاء عن آكل الحرام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[المؤمنون:٥١]، وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[البقرة:١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب، يا رب، ومطعمة حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك)؟(١).

قال ابن رجب رحمه الله: "وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنَّه لا يقبل العملُ ولا يزكو إلاَّ بأكل الحلال، وإنَّ أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبولَه، فإنَّه قال بعد تقريره: (إنَّ الله لا يقبلُ إلاَّ طيباً) إنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾[المؤمنون:٥١]، وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[البقرة:١٧٢]، والمراد بهذا أنَّ الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالاً، فالعملُ صالح مقبولٌ، فإذا كان الأكلُ غير حلالٍ، فكيف يكون العمل مقبولاً. وما ذكره بعد ذَلِكَ من الدعاء، وأنَّه كيف يتقبل مع الحرام، فهوَ مثالٌ لاستبعاد قَبُولِ الأعمال مع التغذية بالحرام؟"(٢).

وقال أبو عبد الله الناجي الزاهد رحمه الله: "خمسُ خصال بها تمامُ العمل: الإيمان بمعرفة الله – عز وجل – ، ومعرفةُ الحقِّ، وإخلاصُ العمل للهِ، والعمل على السُّنَّةِ، وأكلُ الحلالِ، فإن فُقدَتْ واحدةٌ، لم يرتفع العمل.."(٣).

ومن الآثار السيئة لأكل الحرام: سوء المصير يوم القيامة والعقوبة فيه، والإفلاس من الحسنات

---

(١) رواه مسلم.

(٢) جامع العلوم والحكم (ص: ١٠٠).

(٣) جامع العلوم والحكم (ص: ١٠١).

يومئذ، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[البقرة:٢٧٥]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[النساء:١٠]. وقال صلى الله عليه وسلم: (أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)(١). قال جندب بن عبد الله رضي الله عنه: " إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيبا فليفعل"(٢).

فاتقوا الله-عباد الله- فيما تأكلون وتشربون؛ تحروا كسبكم، واقنعوا بالحلال منه ولو كان قليلاً، وتجنبوا أكل المحرمات وشربها، وأتقنوا أعمالكم وانصحوا فيها، وابتعدوا عن الخيانة في الأعمال وظائفكم فيها؛ حتى يسلم كسبكم فتطعموا أنفسكم وأهليكم وأولادكم الحلال الطيب المبارك.

أيها الأحباب الفضلاء، إن البطن وعاء محدود فينبغي ملؤه بالطعام والشراب بقدر الحاجة؛ فالشبع الدائم الذي قد يحصل إلى حد التخمة أحيانًا يعود على الجسد بالمضرة، وكم تكلم الحكماء والأطباء عن مفاسد التخمة والإفراط في الأكل، وقبلهم يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: (ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه)(٣).

إن الأطباء عندما يتكلمون عن أضرار زيادة الأكل فإنما يعنون أن حاجة الجسد من الطعام يسيرة فيكفي منه القليل، والباقي يكون زائداً عن الحاجة فيتحول إلى سموم تضر البدن ؛ إما بحصول أمراض، وإما بحدوث سمنة مفرطة، وإما تضرر بعض أعضاء الجهاز الهضمي، وقد تصل ببعض الناس في حالات إلى الموت. وكم من إنسان أكل أكلة فأسرف فيها فكانت داءه الذي امتنع بسببه عن كثير من الطعام بعد ذلك. قال الشاعر:

وربّتَ أكلةٍ منعت أخاها ***بلذة ساعةٍ أكلاتِ دهرِ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الترمذي وابن حبان وابن ماجه، وهو صحيح.

وكم من طالبٍ يسعى لشيء *** وفيه هلاكه لو كان يدري!(١).

وأما الأنبياء والحكماء وأطباء القلوب والأرواح فإنهم إذا حذروا من مفاسد الشبع الدائم وكثرة الطعام فغرضهم أن مخالفة ما حذروا منه تؤدي إلى أضرار دينية وأضرار معرفية؛ فالشبع مجلبة للآثام منقصة للإيمان، مقس للقلب، فإذا ملأ الإنسان بطنه انتكست بصيرته، وتشوشت فكرته؛ لما يستولي على معادن إدراكه من الأبخرة الكثيرة المتصاعدة من معدته إلى دماغه، فلا يمكنه نظر صحيح، ولا يتفق له رأي صالح، وقد يقع في مداحض فيروغ عن الحق. وكذلك يغلب عليه الكسل والنعاس فيمنعه عن وظائف العبادات، وحينما تقوى قوى البدن وتكثر المواد والفضول فإنه سينبعث غضبه وشهوته وتشتد مشقته لدفع ما زاد على ما يحتاجه بدنه فيوقعه ذلك في المحارم(٢). كما أن البِطنة تذهب الفطنة، وتزيل صفاء الفكر والرأي، فعلى العاقل البعد عن الشره وشدة الشهوة إلى الطعام؛ فإن الطعام الكثير واللذيذ وإن كان حلو الأوائل لكنه مر العواقب.

قال الشاعر:

وإنّكَ مَهْما تُعْطِ بَطْنَكَ سُؤلَهُ *** وفَرْجَكَ ، نالا مُنتهَى الذّمّ أجمعَا(٣).

أيها المسلمون، وللحفاظ على سلامة الإنسان روحيًا وعقليًا وبدنيًا حث الإسلام على التقليل من الأكل، ودعا إلى الصيام؛ فقد شرع الله تعالى صيامًا سنويًا واجبًا هو شهر رمضان، وصيامًا مستحبًا في أيام معلومة من الأسبوع والشهر والسنة، وذلك أن هذا التجويع الشرعي للبدن يعود عليه بالصحة فيريح الجهاز الهضمي من عمله، ويخرج عن الجسد المواد السامة، وهو أيضًا عبادة تذكر العبد بنعمة الله عليه بالطعام، وتحثه على الرحمة بالجوعى والمحتاجين، وتصلح قلبه وروحه. وهذه النتيجة الطيبة يصل إليها العبد الصائم إذا لم يسرف عند سحوره وإفطاره وعشائه، أما إذا فرط في الأكل عند ذلك فلا فائدة كبيرة تعود عليه من الصيام.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) زهر الأكم في الأمثال و الحكم (ص: ٢٨١).

(٢) فيض القدير (٤/ ٢٤٢).

(٣) ديوان حاتم الطائي (ص: ٤٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها المسلمون، ما هو حال البطون يوم القيامة التي انحرف بها أصحابها عن الصراط المستقيم؟ وقبل الحديث عن هذا أسوق بشارة لكل مسلم أصابه مرض في بطنه-في معدته أو كبده أو أمعائه أو كُلاه أو غير ذلك- فساقه ذلك المرض إلى الموت، هذه البشارة قالها رسولنا صلى الله عليه وسلم، يقول عليه الصلاة والسلام: (المبطون شهيد والمطعون شهيد)(١). وفي رواية لمسلم: (ومن مات في البطن فهو شهيد)، يعني: أنه يعطى ما يعطاه الشهيد من الأجر والإكرام يوم القيامة، وما أعظمها من كرامة للمسلم إذا صبر على دائه، واحتسب أجره به عند ربه!

عباد الله، لقد ذكرت بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما ينال البطون من نار الآخرة، فيقول تعالى عن أهل جهنم وما يدخلونه إلى بطونهم: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾[الدخان:٤٣] ﴿ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾[الدخان:٤٤]﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾[الدخان:٤٥] ﴿ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾[الدخان:٤٦]، ويقول عن مقدار هذا الطعام: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾[الواقعة:٥١] ﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾[الواقعة:٥٢] ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾[الواقعة:٥٣]. ويقول جل وعلا عن الشراب: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾[الحج:١٩] ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾[الحج:٢٠].

فليحذر الإنسان الحريص على نفسه أن يصير هذا المصير، وتكون بطنه وعاء لهذا العذاب المرير.

ويقول نبينا صلى الله عليه وسلم عن الذي يشرب في آنية الذهب أو الفضة: (الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم)(٢).

ويقول عن الذي كان في الدنيا يأمر الناس بالمعروف ولا يفعله، وينهاهم عن المنكر ويرتكبه: (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه-يعني: تخرج أمعاءه- فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان، مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

وآتيه)(١).

ألا فلنحفظ-عباد الله- بطوننا عما يضر أرواحنا وأجسامنا، وعما يعود علينا بالشر في دنيانا وأُخرانا، فاللبيب من سمع ووعى، وعما يضره كفّ وانتهى.

نسأل الله السلامة وأن يعيننا على الاستقامة، وأن يوفقنا لأداء شكر فضله علينا بنعمة البطن، وأن يجنبنا كل حرام يصل إليه.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار...

(١) رواه مسلم.

شكر القلب(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، "القلب" كلمة عظيمة يعبر بها الناس عن وسط الأشياء وخيارها، وأحسنها وأفضلها، وقد أخذوا ذلك التعبير من معرفتهم أهمية القلب في بدن الإنسان، ودرايتهم أثرَه على سائر جسمه.

فالقلب هو مركز الحياة في بدن الإنسان وروحه؛ والبدن إنما هو القلب، والروح لا حياة فيها بدون حياة القلب.

والقلب من الناحية البدنية هو عضو عضلي يضخ الدم عبر الأوعية الدموية، ويزود الجسم بالأوكسجين والمغذيات، وبذلك تبقى حياة البدن مرهونة بسلامة القلب؛ فإذا صحّ صحت، وإذا مرض مرضت، وإذا مات ماتت، وبذلك يحتل موقعًا مهمًا في حياة جسم الإنسان؛ لذا يحرص الناس حرصًا شديداً على سلامته من الأدواء، ويخشون عليه المرض أكثر من غيره من الأعضاء، فإذا سقم لم يتهاونوا في الاستشفاء له، ولو بذلوا في ذلك الأموال الطائلة.

وأما من الناحية الروحية فإن القلب هو المؤثر في الروح صحةً ومرضًا؛ فمتى صح القلب بالإيمان وأعماله صحت الروح، ومتى مرض مرضت.

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ٣/٦/١٤٤٠هـ، ٨/٢/٢١٠٩م.

ولهذا كله أولى أطباء البدن القلب عناية عظيمة؛ حرصًا على سلامة بدن الإنسان، وكذلك اهتم الدين بالقلب اهتمامًا كبيراً؛ من أجل سلامة الروح التي بسلامتها حصول السعادة في الدنيا والآخرة.

عباد الله، إن القلب هو محل الخير والشر، فخيره على الجوارح كلها، وشره كذلك، فإذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، كما أخبر نبينا الكريم، عليه الصلاة والسلام.

فلا تخفى بعد هذا أهمية القلب وعلو شأنه، خاصة أن القرآن والسنة قد أكثرا في نصوصهما من ذكر القلب وأحواله وهذا يعزز تلك الأهمية، ففي القرآن العظيم ذكر الله تعالى في آيات عديدة أن القلب هو محل الإيمان أو الكفر أو النفاق، ومحل اللين أو الخشوع أو القسوة، ومحل القبول أو الجحود، ومحل الرحمة أو الفظاظة، ومحل الطهارة أو المرض، ومحل الصبر أو الجزع، ومحل الهداية أو الزيغ. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد:١٦]، وقال: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[البقرة:١٠]. وقال: ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾[آل عمران:٨].

وفي السنة الشريفة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القلب هو محل الصلاح أو الفساد، ومحل التقوى، ومحل نظر الله من العبد، ومحل التمييز بين البر والإثم، ومحل عرض الفتن عليه أينكرها أم يقبلها، وهذا يدل على أهمية القلب من الناحية الروحية.

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)(١).

أيها المسلمون، ولما كان القلب في هذه المنزلة السامية من الأهمية والأثر كان على الإنسان أن يشكر الله على نعمته عليه بالقلب الذي يصلح به دينه ودنياه، ويسأله أن يعينه على حفظه من كل شر.

فكيف يكون شكر القلب يا عباد الله؟

إن شكر القلب على وجه العموم: يكون بالحفاظ على حياته وصحته الإيمانية؛ وبهذا يؤدي حق

---

(١) رواه مسلم.

الله تعالى وحق خلقه، فتسرع الجوارح إلى الطاعات، وتبطئ عن السيئات، وتكون السعادة في العاجل والآجل، قال ابن القيم: "والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين [كمال حياته ونوره] قال تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[يس:٧٠]، فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنفال:٢٤]. فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك"(١).

ومن وسائل حصول حياة القلب وصحته: حب الحق وإيثاره على غيره، وقبول ما جاء به، فعلى المسلم أن يوطن قلبه على استقبال نور الحق والعمل به، وأن لا يقدم عليه الباطل مهما كان مغريًا.

ومن تلك الوسائل أيضًا: الحرص على كثرة ذكر الله تعالى وتعظيمه والثناء عليه؛ فإن ذلك للقلب كالماء للسمك. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:٢٨]. ويقول سبحانه في الأمر بالذكر وذكر فائدته: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة:١٥٢].

ومن ذلك أيضًا: الإكثار من قراءة القرآن قراءةً متأنية متدبرة، تغرس في القلب معاني القرآن وآثاره، وليس قراءة تأتي على الآيات والسور ولا تتجاوز الأبصارَ إلى البصائر، ولا اللسانَ إلى شغاف الجَنان. قال تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[محمد:٢٤].

ومن وسائل حياة القلوب وصحتها: زرع توحيد الله ومحبته في القلب، وتعاهد ذلك بالمتابعة والتنمية، فليس هناك" صلاح للقلوب حتَّى تستقرَّ فيها معرفةُ اللهِ وعظمتُه ومحبَّتُه وخشيتُهُ ومهابتُه ورجاؤهُ والتوكلُ عليهِ ، وتمتلئَ مِنْ ذَلِكَ، وهذا هوَ حقيقةُ التوحيد ، وهو معنى لا إله إلا الله، فلا صلاحَ للقلوب حتَّى يكونَ إلهُها الذي تألَهُه وتعرفه وتحبُّه وتخشاه هوَ الله وحده لا شريكَ له"(٢).

---

(١)إغاثة اللهفان، لابن القيم (٢١/١).

(٢)جامع العلوم والحكم، لابن رجب(٤٩/٤).

ومن الوسائل أيضًا: الزهد عن الدنيا، والرغبة في الآخرة؛ فمن تعلق قلبه بالآخرة وما فيها، وأعرض عن الدنيا وزينتها صلح قلبه واستقام فأدى بذلك شكر الله تعالى. فهذا من شكر القلب.

أيها الأحبة الفضلاء، إن من جحود النعمة أن يملأ العبد قلبه بمساخط الله، والذنوبُ هي تلك المساخط وهي أمراض القلوب، وليس أضر على القلب من مقارفة الذنب، ولا حياة له إلا بتركه:

رَأَيتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ وَقَد يُورِثُ الذُّلَّ إِدمَانُهَا
وَتَركُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ وَخَيرٌ لِنَفسِكَ عِصيَانُهَا(١).

وهذه الذنوب الواردة على القلب قد تكون ذنوب شهوات تعارض الأمر والنهي، وقد تكون ذنوب شبهات تعارض أخبار الوحي.

فمن الناس من يعمر قلبه بالكفر أو النفاق أو الشك فيما يجب اليقين به، أو حب البدع والميل إليها.

ومن الناس من يملؤه بأمراض أخرى مثل: الرياء والعُجب، والحسد والغِل، والكيد والمكر، والقسوة، وحب الفواحش.

وهذه الأمراض الباطنة لها أثر كبير على أعمال الجوارح، فما في الجوارح من الاعوجاج إنما هو أثر تلك الأمراض القلبية. ولا سلامة لدين الإنسان وراحة دنياه إلا بالسلامة من تلك الأمراض المهلِكة.

فعلى من يريد قبول عمله الصالح أن ينزع من قلبه العجب به، ومراءاة المخلوقين بعمله؛ فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢-٣].

وعلى من أراد الراحة والسعادة، والسلامة من الظلم والحيف أن ينقي قلبه من الحقد والحسد لإخوانه المؤمنين، وأن يحاول الانتصار على نفسه بتطهيرها من هذا الدغل.

وعلى من أراد التأثر بالقرآن والطريق إلى العمل به، وأراد الرحمة بمن يستحقون الرحمة أن ينزع القسوة من قلبه، ويحل محلها اللين لذكر الله وآياته، والعطف على إخوانه المسلمين، قال تعالى:

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(١/١٠).

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر:٢٢-٢٣].

نسأل الله أن يصلح قلوبنا، ويطهرها من كل سوء.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب؛ إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أيها المسلمون، إن القلب إذا شكر الله تعالى؛ فحُلِّي بما يحب الله تعالى من الأعمال الإيجابية، وخُلِّي عما يكره الله تعالى من الأفعال السلبية فقد صار قلبًا حيًّا صحيحًا. "وحياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه"(١).فـ" إذا قوي نوره وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حسنَ الحسن بنوره وآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح"(٢). وأصبحت حياة القلب هي الطريق إلى الوصول إلى الله تعالى، والتنعم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فمن كان أتم حياة في قلبه كان أتم حياة في دنياه وآخرته. وبتلك الحياة يصير القلب قلبًا شاكراً، متصفًا بأحسن الصفات، متجملاً بأجمل السمات.

فالقلب الشاكر قلب صالح، وهذا القلب الصالح يعود صلاحه على الجوارح كلها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا وإن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)(٣).

قال ابن رجب رحمه الله: "فإنْ كان قلبُه سليماً، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يُحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركاتُ الجوارح كلّها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرَّمات كلها ، وتوقي للشبهات؛ حذراً مِنَ الوقوعِ في المحرَّمات، وإنْ كان القلبُ فاسداً قدِ استولى عليه اتِّباعُ هواه، وطلب ما يحبُّه، ولو كرهه الله ، فسدت حركاتُ الجوارح كلها، وانبعثت إلى كلِّ المعاصي والمشتبهات بحسب اتِّباع هوى القلب؛ ولهذا يقال: القلبُ مَلِكُ الأعضاء، وبقيَّةُ الأعضاءِ جنودُه، وهم مع هذا جنودٌ طائعون له، منبعثون في طاعته، وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيءٍ من ذلك، فإنْ كان الملكُ صالحاً كانت هذه الجنود صالحةً، وإنْ كان فاسداً كانت جنودُه بهذه المثابَةِ فاسدةً، ولا ينفع عند الله إلاّ القلبُ السليم"(٤).

والقلب الشاكر متى امتلأ بعظمة الله" محا ذلك مِنَ القلب كلَّ ما سواه، ولم يبقَ للعبد شيءٌ من

---

(١) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/٢٣).

(٢) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/٢١).

(٣) متفق عليه.

(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/٨).

نفسه وهواه، ولا إرادة إلاَّ لما يريدهُ منه مولاه، فحينئذٍ لا ينطِقُ العبدُ إلاّ بذكره، ولا يتحرَّك إلا بأمره، فإنْ نطقَ، نطق بالله، وإنْ سمِعَ، سمع به، وإنْ نظرَ، نظر به، وإنْ بطشَ، بطش به"(١).

والقلب الشاكر راغب في الآخرة، زاهد عن الدنيا، فكلما " صح من مرضه ترحل إلى الآخرة، وقرب منها حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها حتى يصير من أهلها"(٢).

والقلب الشاكر موعود صاحبه بالنجاة يوم القيامة؛ لأنه قلب سليم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء:٨٨، ٨٩].

و"القلب السليم هو: "الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه والذل له وإيثار مرضاته في كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق"(٣).

فما أحسن شكر القلب يا عباد الله، وما أجمل أثره على حياة المرء في عاجل أمره وآجله! ألا فاتخذوا قلوبًا شاكرة تسعدوا في الدنيا والآخرة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرا، ولسانًا ذاكرا، وزوجة تعينه على أمر الآخرة)(٤).

هذا وصلوا وسلموا على من أمرتم بالصلاة والسلام عليه...

---

(١) المرجع السابق (٢٢/٤٠).

(٢) إغاثة اللهفان، لابن القيم (٧١/١).

(٣) إغاثة اللهفان، لابن القيم (٧/١).

(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وهو حسن.

حفظُ العَقل(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[آل عمران:١١٨]، وقال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[آل عمران:٧]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَى ﴾[طه:٥٤]، وقال: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾[الفجر:٥].

أيها المسلمون، ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمة العقل والألباب والنُّهى والحجر وهي أسماء لمسمى واحد، معناه: ما يعقل الإنسان وينهاه ويحجره عن المكروهات. وفي هذه العناية القرآنية إشادة بشأن العقل، وبيان لمنزلته السامية، ورتبته العالية في غدراك الأمور، والإفادة من الآيات والعِبر.

فالعقل نعمة عظيمة من نعم الله على الإنسان، فبه يهتدي إلى مصالح دينه ودنياه، وهو وهبة سَنيَّة وهبه إياها ليستعملها فيما ينفعه في عاجل أمره وآجله، لكن أكثر الناس استعملوها في منافع الدنيا، ولم يستعملوها في منافع الآخرة، فأخذوا أدنى الحظين، وفوتوا على أنفسهم أعلاهما.

عباد الله، لقد منح الله تعالى عقل الإنسان شأنًا عظيمًا؛ فجعله مناط التكليف، وعلامة الصلاح

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني في: ١٠/٦/١٤٤٠هـ، ١٥/٢/٢٠١٩م.

للأمر والنهي، فمن ملكه صار مكلفًا، ومن قصر عنه كالأطفال أو فقده كالمجانين سقط عنه التكليف. فكان العقل بهذا أساس الأعمال وينبوعها، والمميز بين الأشياء ومرجعها، فلا تكليف على قاصر حتى يبلغ، ولا على مجنون حتى يعقل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الغلام حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق) (١).

وإذا أردتم أن تعرفوا -أيها الأحباب- فضل الله عليكم بهذه النعمة فانظروا إلى من فقدها كالمجانين وأصحاب الأمراض العقلية.

زوروا مشافي الأمراض النفسية، وانظروا إلى المجانين في الشوارع، واحمدوا الله على نعمته، واسألوه دوام فضله.

ومما يبين لنا عظم هذه النعمة وأهميتها في الشريعة الإسلامية كذلك: أن الجناية على العقل حتى يخرج عن حد التكليف توجب الدية كاملة كدية النفس؛ لأن العقل أشرف المعاني والأعضاء، وهو من أعظم آلات السعادة وصلاح الحياة.

ومما يدل على أهمية العقل أيضًا: أن الله تعالى جعله طريقًا إلى تدبر آياته، والتفكر فيما أودع في خلقه من بديع مصنوعاته ، وجعله كذلك وسيلةً إلى الاعتبار بما جرى من العاقبة الحسنة لأهل طاعته، ومن العاقبة السيئة لأهل معصيته. قال تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[محمد:٢٤]، وقال: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الزمر:٤٢]، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[يوسف:١١١]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج:٤٦].

ومما يدل على أهمية العقل كذلك: أن الله تعالى عاتب المشركين الذين ألغوا عقولهم، وحجبوا تفكيرهم، فصاروا أُسراء لتقليد آبائهم المشركين، حتى منعهم ذلك من اتباع الحق، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾[البقرة:١٧٠].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان، وهو صحيح.

عباد الله، إن العقل عقلان: عقل تكليف، وعقل علم وخبرة، وهذا الثاني قدر زائد عن الأول، فالأول غريزي، والثاني اكتسابي نتج عن إدراك العلوم والمعارف، وانفتح بالتجارب والخبرات، وأهله هم الذين نسميهم الأذكياء أو العباقرة .

وأما عقل التكليف فهو نور يعرف به المكلف الخير من الشر، والنفع من الضر، والحق من الباطل، غير أن بعض الناس استعمل ذلك النور فنجا، وبعضهم الآخر أطفأه فمشى في ظلام دامس فهلك.

ونعني بهذا أن هناك من صرف عقله عن الآخرة وأعمله في جلب مصالح دنياه، ودفع مضارها، سواء كان طريقه إلى ذلك صحيحًا أم غير صحيح، وهذا حال الكافرين برب العالمين.

ومن الناس من أعمل عقله في الهدف الذي خُلق لأجله وهو عبادة الله تعالى، وهذا حال المسلمين، غير أنهم في ذلك صنفان:

الصنف الأول: من وظف عقله في التفكير في جلب مصالح الآخرة ودفع مضارها، مع أخذ ما تيسر له من أسباب العيش الدنيوي، جاعلاً الآخرة هدفه الرئيس في حياته، والدنيا تتبع ذلك، فهذا أعقل الناس وأصلحهم وأتقاهم وأنجحهم.

والصنف الثاني: من أعمل عقله في كيفية الوصول إلى خيرات الدنيا وملذاتها، صارفًا جُلّ تفكيره في ذلك، مكتفيًا من الإسلام ببعض الشعائر، فأضحى مغلبًا أمر دنياه على أمر آخرته، وهذه حياة أكثر المسلمين، حيث صار العمل للدنيا هو المستولي على الجهد والوقت والتفكير، وهم بهذا يخسرون خيراً كثيراً حينما جعلوا الآخرة في هامش اهتمامهم وعملهم.

أيها الأحبة الكرام، هناك عقول ذكية وألباب مشرقة، لكن في أحوال الدنيا وشهواتها فحسب، فهذه عقول خاسرة حين أظلمت في مصالح الآخرة ومنافعها، فهي ربحت الدنيا لكنها خسرت الآخرة.

فكم من ذكي ألمعي، ومخترع عبقري هداه عقله الواسع وذكاؤه الخارق إلى مجاهل ومسالك في أمور الدنيا لم يصل إليها أحد قبله، فصار صاحب اكتشافات وحقائق ونظريات، وأوصله عقله وذكاؤه إلى مقامات رفيعة في شؤون الحياة، لكنه لم يوصله إلى خالقه ويعرفه دين ربه الحق، فماذا استفاد من ذلك العقل الكبير والذكاء الوقاد لحياته الأبدية؟! فبئس العقل الناجح دنيويًا، المخفق أخرويًا!

وكم من إنسان مسلم لديه معرفة محدودة بمصالح الدنيا، ودراية ضئيلة بمعارفها وعلومها، ولكنه يعرف ربه، فيؤدي حقه، ويستعد للقائه بزاد التقوى، فهذا هو العاقل حقًا وليس ذلك المبدع والمخترع الكافر.

ولكن ما أجمل أن يكون لدى الإنسان عقل كبير في العمل للآخرة، والعمل للدنيا أيضًا، يفيد بذلك نفسه عند الله، ويفيد غيره من الناس في هذه الحياة.

عباد الله، إن العقل لا يسلم من أعداء يحيدون به عن الطريق المستقيم، ويعدلون به عن إعمال تفكيره فيما ينجيه عند ربه العظيم، ويصلح له حياته الدنيا صلاحًا غير مشوب بالباطل والأكدار:

فالعدو الأول هو الهوى، وهو "ميل النفس إلى ما تستلذه الشهوات من غير داعية الشرع"(١). بحيث يصير الإنسان عبداً مطيعًا لكل ما تشتهيه نفسه من الباطل. وأصحاب العقول المعبدة للهوى لا يفكرون إلا بملذات أجسادهم وشهواتها العاجلة، وليس لديهم تفكير في أسباب النجاة في الآخرة، فهم في سكر الهوى والشهوة، فإذا جاءهم ملك الموت صحوا.

ولا يخفى أن " الهوى عن الخير صاد ، وللعقل مضاد ؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل ستر المروءة مهتوكا، ومدخل الشر مسلوكا. قال بعض الحكماء: العقل صديق مقطوع ، والهوى عدو متبوع" . وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ :

يَا عَاقِلًا أَرْدَى الْهَوَى عَقْلَهُ*** مَالَك قَدْ سُدَّتْ عَلَيْك الْأُمُور

أَتَجْعَلُ الْعَقْلَ أَسِيرَ الْهَوَى*** وإِنَّمَا الْعَقْلُ عَلَيْهِ أَمِير"(٢).

فليحفظ المرء عقله من سلطان الهوى الذي إذا دخل في رعيته هلك ، قال بعض أهل العلم: "والعقل والهوى متعاديان؛ فالواجب على المرء أن يكون لرأيه مُسعفا، ولهواه مسوّفا، فإذ اشتبه عليه أمران اجتنب أقربهما من هواه؛ لأن في مجانبته الهوى إصلاح السرائر، وبالعقل تصلح الضمائر""(٣).

وقال آخر: "ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسروراً ولذة أكمل من

---

(١) كتاب الكليات. لأبي البقاء الكفوي (ص: ١٥٤٢).

(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص: ١٩-٢٠). بتصرف.

(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان (ص: ٥).

لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما، وهنا يمتاز العقل من الهوى"(١).

"قيل لبعض الحكماء: أوصنا بأمر جامع، قال: احفظوا وعوا أنه ليس من أحد إلا ومعه قاضيان باطنان أحدهما: ناصح، والآخر: غاش، فأما الناصح فالعقل، وأما الغاش فالهوى، وهما ضدان فأيهما مِلت معه وَهى الآخر- يعني: ضعف-"(٢).

والعدو الثاني للعقل: المعلومات الخاطئة، التي تشكلِّه في بوتقة انحراف، وتسقيه أسباب عطبه، ومادة انحرافه، حتى يختل توازنه الفكري، ويفسد سلوكه العملي، ويضل بذلك عن جادة الحق. وتلك المعلومات المضلة قد تأتيه من معلِّم أو وسيلة إعلامية مرئية أو مسموعة أو مقروءة، أو جليس مشوش الفكر.

ولو بقي المرء خِلواً من ذلك لكان جهله وبُعده عن تلك المعلومات المسمومة خيراً له؛ ولهذا ندم بعض الخائضين في الفلسفة وعلوم الضلال بعدما ضلت عقولهم في خضمها، ونصحوا الناس بالبعد عنها، وتمنوا لو ماتوا على عقائد العجائز (٣). وكم يحرص أعداء الحق اليوم على بث الشبهات لتضليل العقل المسلم، وتشويه أفكاره الصحيحة، وتشكيك صاحبه بثوابت دينه. ألا فليحفظ المسلم عقله وعقول أهله وأولاده من عادية الشبهات، وحملات التضليل والتشكيك؛ فإن الاستجابة لها وأد للعقل، وطمس لأنواره، وسبيل هلاكه.

والعدو الثالث للعقل: البيئة الفاسدة، التي تعج بالفساد والمفسدين، فكم تُكدر من عقول نقية، وتشوّه من صور ذهنية، وتزرع فيها من أفكار منحرفة، وتصورات مهلكة، حتى يغدو العقل بها أسير شهوات، أو حبيس شبهات مضلات. خصوصًا في هذا الزمن المُرّ الذي تقل فيه البيئات الصالحة، ويندر فيه الجلساء الصالحون.

فعلى الإنسان أن يحذر على عقله وعقول أهله وأولاده أضرار الهوى والمعلومات الخاطئة، والبيئة الفاسدة؛ فإنها أجنحة الشر الثلاثة التي تطير بالعقول إلى متاهات الغواية، وآفاق اللوثة الفكرية.

وليجعل مكانها التقوى والعلم النقي والبيئة الصالحة؛ فإنها قوارب النجاة للعقول في أمواج الانحراف العقلي الذي يعيشه عالم اليوم.

---

(١) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، للسفاريني (١/ ٦٩).

(٢) العقل وفضله، لابن أبي الدنيا (ص: ٦٢).

(٣) ينظر مقالات بعضهم في شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز (ص: ٢٠٨).

أيها المسلمون، لقد حافظ الإسلام على العقل البشري محافظة شديدة، واعتنى به اعتناء عظيمًا؛ فكان العقل من الكليات الخمس التي اتفقت الشرائع السماوية على حفظها، وهي الدين والنفس والمال والعرض والعقل؛ وذلك أن العقل موضع استقامة دنيا الإنسان ودينه، وسبب لسلامة ما حوله من ضرره.

فقد حرمت الشريعة الإسلامية على المسلم المفسدات العقلية التي تؤدي إلى الإخلال بالعقل فيصبح صاحبه كالمجنون لا يعرف الضار من النافع، ولا الزوجة من الأم أو البنت. وهذه المفسدات العقلية الحسية هي الخمور والمخدرات وما قام مقامها من المسكرات. فقد جاءت النصوص في القرآن والسنة بتحريم الخمر ويقاس عليه ما ماثله في الإسكار أو زاد عليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة٩٠-٩١]. وقال النبي صلى الله عليه و سلم: (كل مسكر خمر، وكل خمر حرام)(١). وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله لعن الخمر وعاصرها، ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وشاربها، وبائعها ومبتاعها وساقيها ومسقاها)(٢).

معشر العقلاء، إن آفة السكر هي أم الخبائث، ومفتاح كل شر، وبوابة الهلاك؛ فكم حصل بسببها من سفك للدماء المعصومة، وإتلاف للأموال الخاصة والعامة، وانتهاك للأعراض المصونة حتى على المحارم، وكم قضت على طاقات نافعة وعقول ناضجة، وأشقَتْ من أسر سعيدة، وكم أذلت من عزيز، وأفقرت من غني، وأهانت من كريم، وصغرت من عظيم، وأمرضت من صحيح، وفرقت بين الأقارب والأحبة والأصدقاء.

وغير خافٍ على كل ذي حجا نظيف أن المسكرات إهلاك للفرد والمجتمع في مجالات شتى: إهلاك ديني، وإهلاك أخلاقي، وإهلاك اقتصادي، وإهلاك صحي ونفسي.. وقد تحدث الناس عن أضرارها ووجوب تجنبها على اختلاف أديانهم وتخصصاتهم العلمية.

لذلك وجدنا بعض الدول العالمية الكبرى غير المسلمة حاربت الخمر في بعض الأوقات وأنفقت في سبيل ذلك أموالاً وقدرات كثيرة، لكنها لم تفلح؛ لعدم وجود الوازع الداخلي لدى

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد وابن حبان والطبراني والحاكم، وهو حسن.

المتعاطي. أما شعوب الإسلام فقد رباها الإسلام على ترك المسكرات طاعة لله، وسلامة للدين والدنيا، فقل تعاطي المسكرات بين أهلها. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه عند نزول آية تحريم الخمر قال: (فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حرمت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القِلال يا أنس، قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل). وهكذا يصنع التسليم لحكم الله تعالى.

نسأل الله أن يحفظ عقولنا من كل سوء، وينيرها بأنوار الهداية، وأن يصرف عنها أسباب الانحراف والغواية.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

عباد الله، إن الإنسان إذا استعمل عقله استعمالاً صحيحًا قاده إلى معرفة خالقه والعمل بشرائعه، والسير على طريق مرضاته، واستفاد من آيات الله تعالى المسطورة كثرةَ تلاوةٍ وتدبراً وعملاً، ومن آيات الله المنشورة في هذا الكون نظراً وتفكراً واهتداء، وانتفع من مواضع العبرة انكفافًا عن أسباب الهلاك، وإقبالاً على سبل النجاة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة١٦٤].

ومن استعمل عقله استعمالاً صحيحًا ظهر على أقواله وأفعاله الصوابُ والاستقامة، وصار من أهل الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وغدا محبوبًا عند أهل السماء وعند أهل الأرض.

وأصبح لديه نور يسلك بضيائه إلى منافع دنياه ومصالح عيشه من أسهل الطرق وأسلمها، وأضحى منشغلاً بأسباب نجاته غير منشغل بما يعني الناس ولا يعنيه.

وإذا زاد عقله في الإشراق والاتساع أصبح ينظم حياته الدينية والدنيوية، فيسير على خطط واقعية مرسومة بعيدة عن الفوضى والعشوائية، مستفيداً من أخطاء الماضي؛ لئلا يعود إليها في المستقبل، متعظًا بمواعظ الأيام ومرور الزمان ومن تجارب الآخرين وعقولهم.

فالعقل منظم الحياة ومديرها، فإذا تشبع بمعارف صحيحة وإضاءات سليمة كانت مخرجاته صائبة مفيدة.

أيها المسلمون، إن العقل إذا اكتمل واستنار عند صاحبه أثمر له معرفة استغلال الفرص وكيفية الاستفادة منها؛ فقد أدرك بتجاربه وتجارب غيره التي أضافها إلى عقله أن الفرص أطياف تمر، وأنفاس تخرج لا تعود مرة أخرى إلا أن يشاء الله، فعندما يجد الفرصة أو يعيش فيها فإنه يستفرغ حاجته منها ولا تفارقه إلا وقد نال منها ما يريد.

فيا أيها المسلم العاقل، عمرك فرصة، وفراغك فرصة، ورخاؤك فرصة، وأمنك فرصة، وقدرتك فرصة، وأمرك بيدك في بعض شؤونك فرصة، وامتلاك الوسائل الميسرة والمؤثرة

فرصة؛ فلا تضيعن منك هذه الغنائم وتمر عليك وأنت نائم غير مكترث بها.

يا أهل الحجا، إن العقل إذا اكتمل واتسع عرف صاحبه كيف يخرج من المضائق، ويفك عنه قيد المآزق، وكيف يتعامل مع المواقف الشديدة التي تطيش فيها الأحلام، فينقُب عقله الفسيح جُدد الأزمات وحصونها العتيدة ليصل إلى مخارج من قبضتها بالأسباب المباحة والوسائل الصحيحة المتاحة.

وبعد هذا علينا -عباد الله- أن نشكر الله تعالى على نعمة العقل، ونستعملها في الفضائل وطمس معالم الرذائل، ونحفظها من جميع المفسدات الحسية والمعنوية، ونحصنها بالوعي التام والثقافة النظيفة، والمراقبة الكاملة لخالقها وواهبها سبحانه وتعالى

وعلينا أن نعلم أن العقل البشري له حدوده التي لا ينبغي أن يتجاوزها بتفكيره؛ لأنه إذا سبح في غيره جوّه تاه وتحير، وتفرق وتضرر.

فمن منحه الله منحة العقل فقاده إلى الخير، وعَقَلَه عن الشر فما أعظم ما مُنح، وما أحسن ما به مُدِح.

يَعِيشُ الْفَتَى بِالْعَقْلِ فِي النَّاسِ إِنَّهُ*** عَلَى الْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ

وَأَفْضَلُ قَسْمِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ*** فَلَيْسَ مِنْ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ

إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ*** فَقَدْ كَمُلَتْ أَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ(١).

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص: ٣).

حفظ الفرج (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد خلق الله تعالى الحياة الدنيا، وبث فيها أنواعًا من الكائنات الحية التي تعيش فيها من الإنس والجن والطير والحيوان، وكتب لها الاستمرار على ذلك إلى أمد معلوم، وحينما كانت هذه الحياة قائمة على قانون السببية فإن الله تعالى قد جعل بين ذكور الأحياء وإناثهم ميلاً مشتركًا يكون سبب استمرار بقائهم إلى ذلك الأمد المحدد، ولولا ذلك لانقرضوا وتعطلت الحياة من أهلها.

والإنسان كائن حي خلقه الله تعالى وركّب فيه الشهوة الجنسية من أجل التكاثر والتناسل وغيرهما من المصالح. وتلك الشهوة جزء طبيعي من المخلوق الإنساني ومظهر كمال فيه، وعنصر قوة ومدح، وفقده نقص وذم وضعف.

غير أن العالم الإنساني لما كان أرقى عوالم المخلوقات، وهو المكلَّف مع الجن بالتكاليف الشرعية من بين سائر المخلوقات؛ فإن الشرائع السماوية قد ضبطت شهوته الجنسية، ونظمت قضاءها، وجعلت لها طرقًا سليمة من العواقب الوخيمة في العاجل والآجل، وذلك التنظيم الرباني لتلك الشهوة الإنسانية سمو للإنسان عن عالم الحيوان والبهائم الذي لا ضوابط ولا حدود فيه لقضاء الوطر الجنسي.

---

(١) ألقيت في جامع ابن الأمير الصنعاني، صنعاء، في ١/٧/١٤٤٠هـ، ٨/٣/٢٠١٩م.

أيها المسلمون، إن حاجة الإنسان البالغ الصحيح إلى قضاء هذه الشهوة كحاجته إلى الطعام والشراب؛ فلذلك شرع الله تعالى له الوسيلة النظيفة الصحيحة لتلبية تلك الرغبة الفطرية بسلوك سبيل الزواج الشرعي، الذي تتحقق به مصالح كثيرة في الدين والدنيا والآخرة.

فالزواج هو الطريق الآمن، والدواء الناجع، والوسيلة السليمة إلى قضاء هذه الشهوة الإنسانية، وهو مصلحة عامة للمجتمع كله؛ فبه تحفظ الأعراض، ويقضى على بعض الأمراض، وتصان الحرمات، وتتكاثر المجتمعات، وتبنى الحياة وتنشط في مجالاتها المختلفة، ويتحصن الرجال والنساء من الحرام الذي إذا ارتكب أفضى إلى كوارث وآفات كثيرة.

فلأجل ذلك ينبغي تيسير طرقه، وإعانة أهله، وتشجيع الأسر والمجتمعات عليه، وعلى الشباب الحرص على طلب الرزق وتوفير مورد مالي يعينهم على الزواج والنفقة بعده، وعلى أولياء الأمور وقريبات المخطوبة من أم أو أخت وغيرهما أن لا يطالبوا برفع سقف المهور، بل عليهم أن يقبلوا الميسور ولا يطلبوا المعسور، ويخففوا من نفقات الحفلات التي لا فائدة كبيرة فيها. ولو نظر الناس نظرة فاحصة عاقلة لرأوا أن تلك الحفلات وما ينفق فيها وما يرافقها من نفقات الزينة الكثيرة قد حرمت بعض الشباب والشابات من الزواج فأوقعتهم في قيود الحزن والعنوسة، وألجأت بعضهم إلى الحرام. فليدع المجتمع كثيراً من تلك المظاهر؛ حرصًا على تسهيل طريق العفاف، وحفظًا للمجتمع من آثار الحرمان من الزواج.

عباد الله، أحيانًا قد يبتلى الرجل أو المرأة بتأخر الزواج؛ فالرجل لقلة ماله، والمرأة لعدم مجيء خاطب، فمن كان كذلك فعليه أن لا ييأس ولا يجزع؛ فالحياة مازال فيها بقية. وهذه الحال إذا صبر عليها المبتلى بها، ولزم حصن العفة أجر أجراً عظيمًا. وفي هذا الظرف شرع الإسلام الصيام إطفاء لأوار الشهوة المتقدة، وتخفيفًا لحدتها المستعرة. قال النبي صلى الله عليه و سلم: (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء)(١). وهذا الصيام الذي يحقق هذه النتيجة من قطع الشهوة هو الصيام الذي فيه تخفيف من الأطعمة والأشربة عند الإفطار والسحور ليلاً، والتقليل من النوم نهاراً.

أيها المؤمنون، من أنعم الله عليه من الرجال أو النساء بالزواج فليحمد الله على هذه النعمة التي تعفه وتصونه عن الحرام والعناء، وليعرف كل من الزوج والزوجة الحقوق الزوجية حتى تدوم العشرة والوئام بينهما، فيتم العفاف وسائر مصالح الزواج، وليسعَ كل زوج إلى إعطاء

---

(١) متفق عليه.

الآخر حقوقه، خاصة حق الفراش؛ لئلا تتكدر العلاقات فيسلك أحدهما طريق الحرام، إو يصير إلى دائرة الضيق والأسى.

وعلى الزوجة أن ترضى بما شرع الله للرجل من المباحات؛ فإذا كان الزوج راغبًا في التعدد وعنده القدرة الكاملة لذلك من مال وقوة شهوة وتقوى تمنعه من الظلم بين الزوجات فلا تكن عائقًا له في هذا الطريق المشروع، أما إن كان عاجزاً عن ذلك في ماله أو بدنه أو قلة عدله فليصبر على زوجة واحدة فذلك خير له ولها، ولا يبحث عن مشكلات جديدة لنفسه ولزوجته وأولاده.

أيها المسلمون، إن حفظ الفرج عن الحرام هو من العفاف الذي يعد خلقًا من أنقى الأخلاق، وأدبًا من أرقى الآداب، وسمواً إنسانيًا عاليًا، وعبادة من العبادات التي ترفع منزلة العبد عند ربه، وتنشر له بين الناس سمعة حسنة، وسيرة عطرة. والعفاف وعدم إرخاء الذيل للحرام طهارة ونقاء، وجمال وبهاء، ومظهر برّاق يشير إلى قوة النفس وانتصارها على أهوائها، وتأبّيها على إغراء شهواتها.

وهو خلق عظيم من أخلاق الإيمان، ودرجة رفيعة من درجات الإحسان، وميزان يُعرف به المؤمن من الفاسق، والصالح من الطالح، والسامي من الداني، والكريم من اللئيم.

وهو حصن الفضائل، وسد منيع أمام الرذائل، وصِمَام أمان للنفس والأسرة والمجتمع والأمة.

أيها الأحبة الفضلاء، إن الحياة ما تزال بخير ما كان العفاف وإحصان الفروج هو السمة البارزة لها، وهذه الحياة الطاهرة هي التي يجب أن تكون بين المسلمين، ولكن ضعف الأخذ بالإسلام، وكثرة عشّاق الحرام، وانتصار قوى الباطل في هذا الزمان أدى ذلك كله إلى خدش جدار العفة، وتلطيخ ثوب الصيانة النقي داخل المجتمعات المسلمة، فظهرت مظاهر غابت فيها العفة، وحضر فيها البعد عن تحصين الفروج.

بل زاد حجم الرزية واتسع خرق البلية حينما جاهر بالفواحش أهلها، وعدوها مفخرة من المفاخر، وسعوا إلى ترويجها بين الناس، والعاصي يهون ذنبه مادام مستوراً، فإذا جاهر وفاخر فقد كشف عن نفسه ستر المعافاة وانحدر إلى مهاوٍ مخيفة، وذهب إلى عواقب أليمة.

فمن مظاهر الحرام المتعلقة بالفروج:

الزنا، وهو جريمة كبيرة، وخطيئة بشعة، تواترت الشرائع على تحريمها، والعقول النقية على استبشاعها، قال تعالى: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء:٣٢]،

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)(١).

ومن الفواحش: إتيان الذكور، وهو خبيثة من الخبائث، وقذارة من القذارات التي أهلك الله بسببها أمة من الأمم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴾[هود:٨٢] ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[هود:٨٣]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله من عمل عمل قوم لوط) قالها ثلاثًا(٢).

ومن الفواحش: معاشرة المرأة حال الحيض أو النفاس أو في الدبر، والعادة السرية، واكتفاء المرأة بالمرأة، وإتيان البهائم. فما أسوأها من جرائم، وأكبرها من مآثم، وأدنى نفوس مرتكبيها، وأهون حال منتهكيها.

فمن قارف من تلك المآثم مأثمة، واستلبت عقله منها خطيئة فليتب إلى ربه، ولا ييأس من رحمة الله، وليقطع من قلبه أعلاق التعلق بتلك الفاحشة، وليبعد عن نفسه سبل العودة إليها.

أيها المسلمون، إن الوصول إلى تلك الفواحش جاء عبر أسباب أدت إليها، فكانت تلك المعاصي هي نهاية طريق البؤس، وغاية خطوات الشقاء. فمن تلك السبل المظلمة إلى تلك النهاية المؤلمة:

إطلاق البصر من الرجال إلى النساء ومن النساء إلى الرجال، في الشوارع والطرقات والأسواق والإدارات والشاشات والمصحف والمجلات. وكم للقلب في هذا السبيل من هدايا سامة، وللديانة من جروح دامية، ألم يؤدب الله أهل الإسلام ذكوراً وإناثًا بقوله: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ... ﴾[النور:٣٠-٣١]؟

ومن تلك السبل: خلوة الرجل بالمرأة، وفي هذا الظرف الخالي يحضر الشيطان للتزيين والوسوسة حتى يحصل التعلق، وربما ساق إلى ما بعد ذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يخلون أحدكم بامرأة؛ فإن الشيطان ثالثهما)(٣). وهذه الخلوة المحظورة سواء

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه ابن حبان والبيهقي والنسائي، وهو صحيح.

(٣) رواه أحمد والترمذي، وهو صحيح.

كانت في البيوت أم الإدارات الوظيفية، أم غرف الأطباء، أم فوق سيارات الأجرة والباصات، أم في غيرها، وكم حصل من مصائب بسبب هذه الخلوة المحرمة.

ومن تلك السبل كذلك: سفر المرأة بلا محرم، وخاصة سفرها إلى الأماكن البعيدة عن أهلها وبقاؤها هناك لدراسة أو وظيفة أو زيارة أو نحو ذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها)(١).

ومن تلك السبل: قلة تحفظ النساء على حجابهن وحشمتهن، ومن مظاهر ذلك: الخروج بالألبسة الشفافة أو الضيقة أو المزينة أو القصيرة، والاختلاط بالرجال، وقلة الحياء في مخاطبة الرجال.

وإنها لمصيبة عظيمة على الرجال والنساء معًا؛ فإن ظهور النساء بتلك المناظر تجذب الرجال إليهن، وتشعل فتيل الشهوة التي إن لم تحرق تلفح وتجرح، فأين غيرة أولياء النساء الذين يسمحون لنسائهم بالظهور بين الرجال وهن على تلك الحال من الفتنة؟ ولقد قال الحكماء: إذا ضعفت الغيرة عند الرجال قلت الصيانة عند النساء.

ومن تلك السبل: البيئة السيئة والصحبة غير الصالحة، والإنسان يتأثر بمن حوله، فالمرأة حينما تكون في بيئة لا تحافظ على العفاف، أو عندما تصحب نساء لا دين لديهن ولا خلق يمنعهن من الحرام فقد تنجر وراءهن إلى نهايات مأساوية، وكذلك الرجل عندما يعيش في بيئة منحرفة، ويجلس مع أصدقاء منحرفين فسينحرف وسيأخذ بيده رفقاء السوء ليكون شريكهم في الحرام، وكم أفسد جلساء السوء من رجال أعفاء، وأبعدت جليسات الشر من نساء عن الصيانة والحياء.

عباد الله، ولا ننسى -ونحن نتحدث عن أسباب الانحراف عن العفة وحفظ الفروج- إفسادَ الإعلام السيء للذكور والإناث كباراً وصغاراً بما يعرض من مسلسلات تروج للفاحشة، وأغانٍ ورقص يقدح زناد الشهوة ، ويشجع على العلاقات خارج العش الزوجي، ويهون من شأن الفواحش والجرائم الخلقية.

كما لا ننسى أيضًا ما أفرزته الثورة التقنية الحديثة عبر وسائل التواصل الاجتماعي من فيسبوك وواتساب وتلجرام وإيمو وغيرها من وسائل التواصل؛ فإن هذه الوسائل حينما أساء بعض الناس استعمالها صدعت جدار الفضيلة، وأوقعت بعض الناس في الرذيلة، وخدشت الحياء

(١) متفق عليه.

والعفة، وقربت الفاحش من الفاحشة، وقضت على الستر والصيانة، ويسرت طرق الجريمة، وعرضت الأعراض لنهش الرذيلة، وساقت ذوي الاستعمال المعوج إلى عواقب وخيمة، ونهايات أليمة. وكم أخرجت تلك الوسائل من مخبأة من كناس حيائها، وسرقت العفيفة من حصن عفافها ، وساقتها إلى سوق مآسيها ومصائبها.

وكم سلبت تلك الوسائل من بعض الرجال دينه وماله وعفته، وأخلاقه وطهارته وصحته. وكم من مستور ومستورة، صارت فضائحهم عبر هذه الوسائل معروفة مشهورة.

كم من بيت سعيد أشقته، وعرض نقي نجسته، وخلق حسن قبّحته، وجمع كريم زوجي وأسري فرّقته. كم زوجة انتهت حياتها الزوجية على شاشة جوالها، وبنت سعيدة بين أبويها وإخوانها وأخواتها اختلستها من بينهم تلك علاقات محرمة عبر الجوال حتى أبعدتها عنهم بلا رجعة.

كم سالت من دموع ودماء، وأريقت من عفة وحياء، وفضحت من نفوس وأُسر، ورفعت من نعم، وحلت من نقم، وكل ذلك جاء عبر شاشة جوال لم يحسن صاحبه التعامل معه.

أفلا يكفي العاقل والعاقلة ما تصل إليه من أخبار الضحايا من الذكور والإناث الذين سقطوا على تخوم تلك الوسائل صرعى وجرحى؟

ألا يعلم العاقلة والعاقلة أنه قد يكون بين سعادة العفة وشقاء الفاحشة رسالةٌ أو صورة أو مقطع صوتي أو مرئي أو مكالمة؟

ألا يعلم العاقلة والعاقلة أن شرك الفاحشة وعلاقات الرذيلة ومتابعة صفحات الجريمة يصعب الفكاك منه لمن أحكمت قيوده فيه، فما أسهل دخول مصيدة الفواحش وما أصعب الإفلات منها، وما أحلى طعم أوائل الحرم ولكن ما أمر عواقبها، فهل من متعظ؟

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

أيها المسلمون، إن حفظ الفرج عن الحرام-خاصة في هذا الزمان-مهمة جسيمة، وعبادة عظيمة، وعمل يعقب الخيرات الكثيرة، ويصرف عن أضرار عديدة، في الدنيا والآخرة.

ولحفظ الفرج عن الحرام وسائل توصل إليه، وتعين عليه، يحسن بالذكور والإناث معرفتها؛ حتى يكون ذلك سبيلاً إلى تحقيق تلك الغاية الحميدة، وعونًا على سلوك تلك الطريق السديدة.

فمن تلك الوسائل:

الخوف من الله تعالى في السفر والحضر، ومراقبته في السر والعلن، أكثر من خوف الناس ومراقبتهم، والحياء منه تعالى، وقوة الإيمان، فهذه العبادات الباطنة هي الحارس الأمين، والحصن الحصين أمام طغيان الأهواء والشهوات.

قال تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[يوسف:٢٣]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله)(١).

"راود بعضُهم أعرابيةً ، وقال لها : ما يرانا إلا الكواكبُ، قالت: فأين مُكوكِبُها؟(٢). ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الملك:١٤].

ومن وسائل الحفظ: مجاهدة النفس ومصابرة الشهوة وإغراءاتها، والانتصار على أهوائها؛ فإن الشهوة في جو الإغراءات كالحيوان المفترس إذا لم تحبس بالصبر أفسدت أيما إفساد، فالعاقل لا يعطي نفسه كل ما اشتهت، ولا يبلغها كل ما تمنت.

وإنّكَ مَهْما تُعْطِ بَطْنَكَ سُؤلَهُ *** وفَرْجَكَ ، نالا مُنتهَى الذّمّ أجمعَا(٣).

ومن وسائل الحفظ: تربية النفس على العفاف والغيرة، وكراهية تدنيس الأعراض، وتلطيخ

---

(١) متفق عليه.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢٠/ ١٩).

(٣) ديوان حاتم الطائي (ص: ٤٣).

السمعة، والأسرة الكريمة والبيئة الحسنة والجلساء الصالحون لهم أثر كبير في الحفاظ على هذين الخلقين الكريمين، فمن كان لديه غيرة كاملة فلن يدنس أعراض الناس خشية على عرضه. وفي المجتمعات المحافظة تبرز هذه الشيمة النبيلة حتى لدى تاركي الصلاة والبعيدين عن التدين.

ومن وسائل الحفظ: النظر في العواقب والعقوبات المترتبة على مقارفة الفواحش وسلوك طرقها، ففي الدنيا تجر تلك المآثم على أهلها الفضيحة وسوء السمعة، وابتعاد الناس عن أهلها، والأمراض النفسية والجنسية وغيرها، والحرمان من الزواج، واستحقاق الزاني البكر للجلد، والزاني الثيب للرجم حتى الموت.

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم)(١).

وأما في الآخرة إذا مات الإنسان من غير توبة فسيلقى لعنة الله وعذابه. عن أبي هريرة قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم: ما أكثر ما يدخل الجنة؟ قال: (التقوى وحسن الخلق) وسئل: ما أكثر ما يدخل النار؟ قال: (الأجوفان: الفم والفرج)(٢).

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني إلى أرض مقدسة... فذكر الحديث إلى أن قال: (فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً، فإذا ارتفعت ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا، وإذا أخمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة... الحديث. وفي رواية: فانطلقنا على مثل التنور، قال: فأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط وأصوات، قال فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا... الحديث، وفي آخره: (وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني)(٣).

أيها الفضلاء الكرام، ومن وسائل حفظ الفرج: النظر في العواقب الحسنة للعفاف وحفظ الفروج، فهناك عواقب حسنة في الدنيا، وأخرى في الآخرة؛ ففي الدنيا يكسب العفيف الراحة والصحة وحسن السمعة والأمان والسلامة، وفي الآخرة ينال كثرة الأجور رضوانَ الله وجنته.

---

(١) رواه البيهقي والحاكم، وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه، وهو حسن.

(٣) رواه البخاري.

قال تعالى: ﴿...وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب:٣٥]، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾[المعارج:٢٩] إلى قوله: ﴿ أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾[المعارج:٣٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)(١).

وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها دخلت من أي أبواب الجنة شاءت)(٢).

ومن الوسائل أيضًا: أن يقنع الإنسان بالحلال، ويبعد نفسه عن التشوف إلى الحرام، فمن كان متزوجًا فليقنع بزوجه؛ الزوجة تقنع بزوجها، والزوج يقنع بزوجته؛ لأن الرجل الذي لا يقنع فلن تكفيه نساء الدنيا، والمرأة إذا لم تقنع بزوجها فلن يكفيها رجال الدنيا كلهم، فمن رضي بالحلال ارتاح وسعد، وعوفي في دينه ودنياه.

هذا وصلوا وسلموا على من أمرتم بالصلاة والسلام عليه...

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن حبان، وهو صحيح.

فهرس الخطب

	العنوان	الصفحة
١	المقدمة	٢
٢	شكر البصر	٤
٣	شكر السمع	١٦
٤	شكر اللسان	٢٧
٥	اللسان الثاني	٣٦
٦	شكر اليدين	٤٧
٧	حفظ الرجلين	٥٦
٨	حفظ البطن	٦٦
٩	شكر القلب	٧٤
١٠	حفظ العقل	٨١
١١	حفظ الفرج	٩٠
١٢	فهرس الخطب	٩٩

هذا الكتاب منشور في